طلبة فلسطين: من غزة إلى أبعد نقطة في العالم

محمود بركة، فلسطين

ضمن عمل الكتابة التوثيقية والمعنى المعرفي التحرري المفتوح عن حرب الإبادة في غزة الفلسطينية، نقدِّم على صفحات **الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية**، هذا الريبورتاج الثالث من سلسلة "أصوات غزة"، الذي يتضمن نصوصاً مكتوبة على مستوى الكتابة الشاهدة والشارحة، ومستوى حدث الحرب، كتبها مجموعة من طلبة الجامعات والأساتذة والمبدعين من مختلف الدرجات والتخصصات في غزة، وعموم فلسطين، وفي شتات البلدان العربية والعالم. وقد شارك فيه 22 كاتباً [بما في ذلك معدُّه محمود بركة]، هم، الطلبة: دينا ناجي، ومحمد القدوة، وشروق أسعد أبو دحروج، ووسيم السيسي، وأنس النجار، وفضل نهاد شناعة، وسما المصري، وهلا خالد فريج، ونرمين صمصوم، ولانا نضال حمد، وفهد شهاب، ورويدة سلمان. والأساتذة: عبد الله كراز، ومحمود نافذ الناطور، وياسمين سنونو، وبسام حسن سعيد، وجهاد شويخ، وأسعد أبو جهل، وولاء بطاط. والمبدعات: الفنانة ريم أبو الروس، والكاتبة شروق دغمش.

بعد فترة من التأمل الصعب، يأتي هذا التسجيل التوثيقي وما يحمله من لحظات أصعب رسمتها العيون المفتوحة ولغات الحواس عن غزة—المدينة التي سيعيش العالم يقرأ ويكتب ويسمع ويلمس أفظع القصص التي ارتكبت بحق أبنائها ربما لألفية قادمة. إنها قصص ليست من الخيال ولا يصل إليها الخيال، قصص تُخجل نظريات الأدب والثقافة الحديثة، وينزوي هواة الكتابة السعيدة بعيداً عنها من هول شهادات الرواة، الذين يعلقون على جدران الضمير العالمي صرخة الخجل، وصدى السؤال: "من يكتب التاريخ؟" لينتصر بالكلمة على طائرات وأسلحة من مارس التوحش بالهدم والقتل على مدار أكثر من ألف يوم ويوم. ستأتي سنوات طويلة ، وستعيش شعوب العالم في زحام الذكريات والمرويات، وغزة وأهلها وفلسطين كلها يكتبون في كل يوم النصوص ذاتها، ولكن باستبدال الأسماء، عن الفقد والقصف ومحطات اللجوء.

على وقع هذه الكتابة، يطرق أصحابها جدار الوجود حتى "السماء الأخيرة" للجهر بالحقيقة، لا "لجمالها "، بل لإنصاف أصوات أبناء شعبهم: من صاروا تحت التراب، ومن لا تزال أجسادهم تنزف في الخيمة والشارع والبحر والرمل، ومن انتظرت أجسادهم حتى صارت عظاماً تحت الركام لألف يوم حتى تمكنت من لقاء الناجين من المقتلة، وحظيت بترف الجنازة وشرف المقبرة. هنا كتابات شاهدين على الإبادة، من غزة وجغرافيات فلسطين المختلفة وشتات البلاد العربية والعالم، من أبعد النقاط عن غزة ومن أقرب النقاط عليها. فالكتابة ولادة،

والولادة نسغ ذاكرة تقاوم المحو وتستعصي على النسيان. وهنا كتابات عن سنوات الدراسة تحت المدافع، والبحث عن أمكنة النجاة، والصبر على التجويع، ومناورة النزوح، ولعبة الموت مع قصف البيوت والشوارع والمباني والمصانع والجامعات والمدارس والمساجد والكنائس والمحلات... هنا كتابات تتذكر أهوال الحرب (التي لا يزال متوحشو جيش بقايا الجغرافيا والتاريخ—الغرباء عن الإنسانية، وحكومتهم) يمارسون فيها وعلى الملأ القتل والهدم والمحو، لكل شيء، ولفرص النجاة والحياة التي يصرّ عليها أهل غزة، وشعب البلاد وأصحابها.

عملت مدرساً للإعلام في جامعة الأقصى في بداية حرب الإبادة، اقتربت من الطلبة رغم بعد المسافة وقرب الذاكرة، طلبة ذاقت أجسادهم أقصى درجات التعب والمشقة في قطع المسافات الصعبة بحثاً للوصول إلى نقطة آمنة تخلو من القصف، وتتوفر داخلها مساحة وإنترنت وكهرباء ليواصلوا حضورهم ومهامهم. فأي زمن هذا الذي يصرّ فيه الفلسطيني، على إكمال رحلته الطويلة، وتعليمه، وهو يحيا ضجيج الحرب وألم النزوح المتكرر؟ في أوقات المحاضرات والاختبارات، أرسل لي الطلبة استفساراً عن مدى إمكانية تقديم الاختبار وإعادة المحاضرة في وقت آخر لأنهم يقطعون المسافات مشياً على الأقدام نهاراً بين المباني والشوارع المدمرة. أسمع رسائلهم وصوت الطائرات والزنانة، ذلك الصوت الرهيب الذي لم ينقطع للحظة. استشهد طلبة عرفتهم خلال فترة التدريس، رأيتهم يشبهون النور في الأحلام... ما أجملهم، وهم يحاولون العبور نحو النجاة بكلمات هادئة رغم الحرب والدمار. تلك الأوقات لا تحتاج إلى شاعر أو مسرحي أو كاتب أو ناقد ليصفها، ولا تحتاج لتأمل متصوّف حتى تبلغ ضمير البشرية، وتصل إلى آخر حدود الوجود ليشهدها العالم، وليتعلم الدرس البليغ في رواية الحقيقة. يحفظ طلبة غزة وأساتذتها هذا الدرس عن ظهر قلب، لكنهم لا يتمنّونه لأحد من سكان هذه الأرض، ويواصلون بثَّ رسائلهم للعالم من تحت النار والرماد وألوان العذاب العديدة حتى يتوقف الموت والدمار والفقد والقلق والنزوح.

غزة مدينة تجاور البحر والصحراء وتعلوها سماء العالم، وهي جغرافيات التاريخ العسير في زمن "الكتابة المستحيلة". يكتب أهلها (من الطفل الذي لم يولد بعد، إلى الشباب والنساء والرجال) من بين ما تبقى من الكائنات والأزهار، وعلى الرمال وجدران الطرقات، ومن بين المباني المدمرة والخيام... يكتبون نصوصاً منها لم يُروَ للعالم، ومنها من يسعى للتحرر من عقدة "البحث عن الطبيعي في اللاطبيعي". في هذا الريبورتارج فصول من اليوميات والآثار التي عاشها طلبة غزة وأساتذة جامعات من فلسطين وخارجها. يكتبون عن الدراسة والمباني التعليمية والبنى الثقافية التي تقصف وتُستهدف، ويستمر الاحتلال باغتيالها على الملأ. أصحابها يبحثون عن الوقت بالركض بين مساحات حاصرتها الإبادة على أمل إيجاد مساحة تسمح للطلبة بحالة وجود في "اللحظة الإلكترونية" مع زملائهم من طلبة العالم، للدراسة "عن بعد".

وحتى نتحرر من المعاني الثقيلة التي يفرضها ما وقع في فلسطين وحرب غزة، في العصر الذي يستبدل فيه الذكاء الاصطناعي المشاعر والمعرفة بالغياب والأمية في هذه اللحظة العالمية الرديئة... أكتب هذا النص وأنا أستعيد صوت الطفلة هالة، ابنة أختي ذات السنوات السبع، التي استمرت تسألني طوال الحرب عن أحوال الهدنة. كانت

تقول لي أسماء غريبة عن اللغة العربية، تنطق بها بكل سخرية سوداء، وتضحك رغم الخوف، وتبكي وهي تصف لي أنواع الطائرات والأسلحة. هكذا حفظت طفلة صغيرة في مرسم ذاكرتها، وشاركتني، بصوت مبتسم كوردة، تفاصيل حياتها اليومية عن المشي للمدرسة في الخيام، وسعادتها في ساعات المدرسة. كانت تقول لي: "بدّي أظل في المدرسة اليوم يا خالو. علّمونا كيف نعمل إخلاء لما يصير قصف". كانت تحدثني عن الطعام في التكيّة، وعن أسعار الأطعمة، فتقول لي: "كاش والا تطبيق يا خالو؟" وتضحك، ثم تقول لي فجأة: "باي بدي أنام عشان ما أسمع صوت القصف!"... ربما كانت تخجل من الجوع حينها. كبرت هالة وهي تروي على طريقة أطفال فلسطين، وهي ترسم الحياة الطبيعية العادلة، لكنها تعيش ذاكرة الحرب التي عاشتها قلوب صغيرة وكبيرة أو قضت وهي تتشبث بها، وتتشبث بـ"مرض لا شفاء منه، هو الأمل" الذي رحل محمود درويش وهو يحرضنا على الإصابة به.

تعلمنا غزة وكل فلسطين أن نتأمل ونرسم في رحيق الحياة لأننا أبناؤها الأصلاء: من الأرض جئنا، وولدنا، وخرجنا، وذهب إليها أبناء قلوبنا وأحبتنا. نكتب منها وإليها: الشاعرة والرسَّام والطبيبة والمدرس والأكاديمية والعامل والفلاحة والراعي والكاتب والبائعة والفنان... في شريط حياتنا الطويل الممتد على أرشيف الكتب والمجلات والشاشات والهضاب والمرتفعات والمحطات والعواصم، تعاش أزمنة فلسطينية مكتوبة وشاهدة وذاكرة لا تموت، وإن طاردها الوحوش وأعداء الحياة والإنسانية والمحبة، إلا إن في غزة من يخرج النور من قلبه ووجدانه ليرسم ما يستحق الحياة. ولذا، فقد ختمت هذا الريبورتاج بصوتين يراوحان بين التعليم والتعلُّم، تعليم الرسم وتعلُّم الكلام.

***

أجساد تعبر الحدود وقلوب هناك عالقة

دينا ناجي، فلسطين (غزة)

برنامج الماجستير في الأنثروبولوجيا الطبية والصحة النفسية
جامعة لندن، مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، SOAS، بريطانيا

عندما حطت طائرتي في لندن، كنت أظن أنني على وشك بدء فصل جديد، معتقدة أن المسافة الجغرافية ستمنحني بعض الهدوء لأركز على دراسة الماجستير ومستقبلي. اتخذت قراراً بيني وبين نفسي بأن أترك خلفي كل تفاصيل الإبادة. تركت ملابسي التي علقت بها رائحة النزوح، وصوري، وحتى الأطعمة التي تذكرني بتلك الأيام القاسية. أردت أن أكون مجرد طالبة تبحث عن العلم في مدينة جديدة، وتنتقل إلى عالم آخر بعيد عن الخوف.

لكن ما لم أدركه هو أن أجسادنا قد تعبر الحدود، بينما تظل قلوبنا عالقة هناك، بين خيام رفح وشوارع النصيرات. في لندن، وجدت نفسي أعيش حياة مزدوجة وممزقة. كنت أجلس في قاعات المحاضرات الأنيقة، أستمع إلى نقاشات أكاديمية هادئة، بينما عقلي يركض بلهفة في شوارع غزة بحثاً عن إشارة إنترنت تطمئنني أن عائلتي

وأصدقائي ما زالوا على قيد الحياة. كيف يمكن للإنسان أن يركِّز في كتابة بحث علمي بينما قلبه يرتجف مع كل خبر عاجل؟ وكيف أخطط لمستقبلي بينما مستقبل من أحبهم معلق بخيط رفيع؟

وسط هذا العالم الغريب، حيث الوجوه لا تشبهنا واللغة لا تحمل دفء بلادنا، تسلل إليَّ شعور ثقيل بالاغتراب والذنب—"ذنب النجاة". ذنب أنني أستيقظ في مكان آمن بينما يحرق من أحبهم أوراقهم وأثاثهم ليخبزوا رغيفاً بالكاد يسدُّ جوعهم. كنت أرى الحياة تسير بشكل طبيعي في شوارع لندن المزدحمة، الناس يحتسون القهوة ويضحكون، بينما مدينتي التي شكَّلت هويتي تُمسح تدريجياً من الوجود. عشت توتراً غريباً، أسأل نفسي دائماً: هل أنا بخير لأنني نجوت، أم أنني لست بخير لأنني نسيت تماماً كيف أعيش حياة طبيعية؟

في ذروة هذا التخبط، حدث شيء لم أتوقعه. وجدت نفسي أشتاق بشدة لشيء حاولت جاهدة الهروب من ذكراه: "خبز الحرب". كيف يمكن لخبز قاسٍ، صُنع من دقيق وماء فقط وبلا خميرة، أن يتحول فجأة إلى ملجأ؟ في إحدى ليالي لندن، حاولنا أنا وزوجي أن نخبز هذا الرغيف المرّ. لم نكن جائعين بالطبع، ولم نكن نبحث عن طعام، بل كنا نبحث عن رائحة الأهل. كنا نبحث عن ذلك العناق الذي كان يواسينا ونحن نتقاسم كسرات الخبز تحت القصف. كان طعم ذلك الخبز، بكل قسوته، يوقظ فينا الوطن الذي نخشى أن نفقده.

لقد أدركت حينها أن محاولتنا للانتقال إلى عالم آخر وبناء حياة جديدة لا تعني أبداً الانسلاخ عن جذورنا. نحن لا ننسى، ولن ننسى. لكننا نتعلَّم كيف نحمل ألمنا بطريقة تمنحنا القوة. اليوم، لم يعد تعليمي في لندن مجرد رحلة شخصية نحو شهادة أكاديمية، بل أصبح فعلاً من أفعال الصمود في وجه الإبادة. نحن ندرس، ونعمل، ونحلم، لأن كل خطوة نخطوها نحو المستقبل هي امتداد لبقاء أولئك الذين بقوا هناك. نحمل غزة في قلوبنا، وفي تفاصيل أيامنا، وحتى في طعم رغيف خبز بسيط يذكرنا بأننا، وعلى الرغم من كل شيء، ما زلنا نحاول العيش ونستحق الحياة.

أين ذهب المهندس؟

محمد القدوة، فلسطين (غزة)

كلية الهندسة، تخصص البرمجيات والذكاء الاصطناعي، جامعة فلسطين
إقامة فنية مع المسرح الوطني في مدينة ديجون، فرنسا Le Théâtre Dijon-Bourgogne (TDB)

لم أنتبه إلى السنوات التي تركض وهي خائفة من المباني المنهارة في مدينتي. لم أدرك حجم خسارتي حتى رأيتُ التقويم هذه المرة بعينيَّ، مثل رصاصات النجاة الأخيرة. أحاول الكتابة عن مراحلي الدراسية. لم أكن طالباً محبوباً لدى الكثيرين، ليس لأن درجاتي سيئة، فقد كنت من الأوائل حتى نهاية الثانوية، بل لأنني كنت كثير السؤال، والحركة، وكنت أفتعل كثيراً من المشكلات بسبب ردود فعلي على الأشياء بطرق غير متوقعة. أحاول أن أكتب الآن كي أعود إليها كلما شعرت بأن الفنان الذي في صدري بدأ يُقتل.

علَّمني مدرِّسان أحبُّهما ويحبَّانني اللغة العربية، بل هما من جعلاني أحبُّها. سأبوح الآن بذاكرتين منهما، في مرحلتين مختلفتين، لا تغادرانني. أستاذي العزيز صبح صبح، وأستاذي العزيز أبو العبد الأسطل. في الصف الخامس الابتدائي، تحديداً في الشعبة رقم (1)، كنتَ تدخل علينا بصوتك الجميل، وفيه بُحَّة تروق لمن يحبون الشعر، وأكثر. أخبرتني: "الشعر، يا محمد، أن تكون وحدك القريب من المعنى". على الرغم من أنني كنت صغيراً، لم أفهمك حينها، ولا أعتقد أنني أفعل الآن. لكنني ما زلت أبحث عن قربي من المعنى. وفي الصف التاسع، في الشعبة رقم (5)، مدرسي العزيز صبح صبح، لقد تحمَّلت شقاوتي كثيراً، وصدَّقت أحلامي التي لم أخبرك بها، ولم أخبر أحداً عنها، لكنك رأيتها تقفز داخل عينيَّ، وأخبرتني أمام أمي أنك تحبني، وأنني إن تعلمت كيف أوجِّه أحلامي بطريقة صحيحة فسأصل إلى مكانة كبيرة. لم أصل بعد، ولا أدَّعي الوصول، لكنني ما زلت مؤمناً بصوتك حين قلت: "أحبُّه". وسأرد عليك الآن. وأنا أيضاً.

لا أعرف الآن كيف حالكما. هل ما زلتما في مدينتنا؟ هل سكب الشعر ظلاله فوق رؤوسكما في الخيام؟ أنا الآن أكتب هذا النص من إحدى مدن البلقان، في زيارة سريعة، وأبحث عن مرادفات أكتبها لكما، ولا أجدها. لا أجد أكبر من كلمة "أحبّكما" كي تصف لكما حزني، وفرحي، واشتياقي إليكما.

هذه كتابة إلى أستاذي العزيز محمد هندم... من جعل لهندسة الحاسوب أبواباً في أفقي، وصدَّقني حين رآني مولعاً بالحاسوب والبرمجة. أذكر فرحتك حين زرتك بعد سنتي الأولى في الجامعة، وأخبرتك عن التخصص. ضحكتَ حينها، وأخبرتني: "ستصبح زميلي". أنا آسف، لم أستطع أن أكمل هذه الدراسة. لم تكن صعبة عليَّ، وكلانا يعلم أنني أحببتها، لكنها لم تحبني، وكان ذلك كافياً لأن أهرب.

كلما شاهدت مواقع التواصل الاجتماعي، وصور الأصدقاء في البلاد، من شمالها وجنوبها، أو حتى في الشتات، وهم يرتدون ثوب التخرج من كلياتهم المختلفة، أبكي. على الرغم من أنني غادرت غزة، فإنني لم أستطع أن أكمل دراستي في الخارج. حاولت أكثر من مرة، لكن شعور عدم الجدوى من التعليم كان، وما يزال، مسيطراً. لماذا عليَّ أن أنهي دراستي في هندسة الحاسوب كي أصنع برامج تعمل بالذكاء الاصطناعي، ثم يستخدمها الغباء البشري في قتلنا؟

خرجت من غزة إلى مصر، ثم إلى قبرص، كي أكمل هذه الهندسة، وأمرت نفسي حينها أن أتوقف عن الكتابة والفن. ولأنني غزِّي، كنت مؤمناً بالمقولة: "الفن ما بيطعمي خبز!" وبعد ثلاثة أيام من بداية الفصل الدراسي، استقبلت أول مكالمة هاتفية تُبلغني بالقبول في برنامج المنح الفنية في فرنسا. سقطت أمام عيني دمعة. لم أدرك معناها. أهي فرح؟ أم حزن؟ أكملت الفصل الدراسي في قبرص، لأن الفلسطيني اعتاد أن يجعل لحياته خططاً كثيرة، وسجلت أعلى الدرجات في الجامعة، ثم غادرت عائداً إلى حلمي: كاتباً، ومسرحياً، وشاعراً...

أُنهي الآن عامي الأول في فرنسا، بعدما احتضنتني مدن كثيرة، وجولات لا تنتهي في أوروبا، وكتاباتي قد تغيّرَت. أكتب الآن عن أحزاني التي صارت لا تليق بالحزن الفلسطيني. مثلاً: عن جدولي المليء بالسفر، وعجزي عن تكوين الصداقات، وأحلام أمي التي لا تزال تنتظر المهندس أن يعود. أمازحها ليلاً ونهاراً، وأعود إلى جملة مجتمعي

فأعدِّلها: "الفن ما طعماني خبز، الفن طعماني كرواسون!" فتضحك، وهي تمسح عينيها، وأضحك أنا، ولا أحد يمسح قلبي. صدقيني يا أمي، أنا لم أحلم بالجامعة، ولم أرد أن أكون خريجاً يعمل في مؤسسة، متقاضياً راتباً يعيلني. أنا، أخبرتني منذ صغري، أنني مجنون، أحب الحياة بطريقة مختلفة. صدَّقتِني أياماً، وخفتِ عليَّ أياماً أكثر. حاولت من أجلك، بل من أجل أبي أيضاً. كان حلمي أن أبقى مهندساً، كي أضع على قبره، يوم تخرجي، باقات الورد التي سيهديني إياها أصدقائي. صدقيني، حين أخبرتك أنني سأزرع أشجار الورد عند شاهده، لم أكن أكذب. لا تسأليني، يا أمي، لماذا لم تُكمل الهندسة؟ بل تعالي كي نسأل العالم: أين قبر أبي؟

إن أكثر ما يخنقني الآن، وأنا أشاهد صور الخريجين، هو سؤالي: كيف؟ كيف مرَّت تلك السنوات بهذه السرعة؟ كيف، يا رفاقي، ما زلتم تؤمنون بهذا العالم حتى تهدوه شهاداتكم؟ إن هشام، صديق الدراسة في المرحلة الإعدادية، تخرج مؤخراً من كلية الهندسة المدنية في تركيا. لم أستطع أن أقول له شيئاً، باركت له بصمت كبير. وأجد الآن فرصتي للسؤال أكبر: كيف؟ كيف أخبرت دمعك أن يتوقف عن العبث بك، على أصدقائنا الشهداء: محمود، ومعتز؟ كيف درست، وأكملت أبحاثك عن المدن والبناء، ومدينتك تُهدم فوق رؤوس عوائلنا؟ كيف يا صديقي؟

أنا فرح، حزين، ولا أعرف كيف أخبركم عن اللحظة التي استقبلت فيها المكالمة الفرنسية في قبرص. لكنني أذكر أنني توقفت حينها للحظة، وغنيت بصوت يستدعي الجنون من مرقده. غنيت كل ما حفظته للشيخ إمام، ولمارسيل خليفة. وفي تلك اللحظة فقط، صدَّقت أن المهندس الذي كان يجب أن يحضر إلى قبرص لم يغادر بوابة المعبر، ولم ينجح قط في عبور نقاط التفتيش. وأن الفنان الذي في داخلي عرف كيف يركض، لأن قصيدة كتبها عن السماء أحبها الغيم والطير، فساعداه على الهرب. ولأنهما كرها رائحة الركام المعبأة في رئتيه، قررا أن يوقفا مهندس الذكاء الاصطناعي عند المعبر.

ما تبقَّى

شروق أسعد أبو دحروج، فلسطين (غزة)

بكالوريوس اللغة الإنجليزية وآدابها، ودبلوم التأهيل التربوي
جامعة الأقصى، فلسطين

عندما كنت في المرحلة الثانوية، قرأت درساً في اللغة العربية بعنوان "كم حياة ستعيش؟" لا أذكر كل ما ورد فيه، لكنني ما زلت أتذكر الجملة التي غيَّرتني: "شخص وُلد، ولكنه لم يمت أبداً." بقيت أفكر بها أياماً طويلة. لم أفهمها على أنها حديث عن الموت، بل عن الحياة التي تستحق أن تُعاش. منذ ذلك اليوم، أصبحت أؤمن أن الإنسان يترك أثره بما يصنع، لا بعدد السنوات التي يعيشها.

اجتزت الثانوية، وحصلت على منحة لدراسة تخصص أحلامي: اللغة الإنجليزية وآدابها. لم تكن البداية سهلة، فقد بدأت رحلتي الجامعية في زمن كورونا، وكان كل شيء جديداً ومربكاً. فكرت أكثر من مرة في الانسحاب، لكنني كنت أعود دائماً إلى الفتاة الشغوفة التي كنت عليها، و أقول لها: لم نقطع كل هذه المسافة لنتوقف هنا. ثم جاء عام التخرج. كنت أعدُّ الأيام كما يعدُّ الأطفال الأيام التي تسبق العيد. كنت أتخيل لحظة ارتداء ثوب التخرج أكثر مما أتخيل أيَّ شيء آخر. كنت أظن أن أصعب ما في الطريق قد انتهى، وأن ما تبقى مجرد خطوات قليلة وبسيطة.

لكن صباح 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023 كان مختلفاً عن أيِّ صباح عرفته من قبل. منذ ذلك اليوم، لم يعد الزمن يمضي بالطريقة نفسها. أصبحت أشعر أن حياتي انقسمت إلى نصفين: نصف أستطيع أن ألمسه في ذاكرتي، ونصف آخر ما زلت أحاول فهمه. في البداية كنت أقول إن الحرب ستنتهي قريباً، وأن الجامعة ستفتح أبوابها من جديد، وأننا سنعود إلى مقاعدنا وكأن شيئاً لم يكن. لكن الأيام كانت تكبر، وتكبر معها المسافات. لم تعد هناك جامعة كما عرفتها، ولم يعد الطريق الذي أسلكه إليها موجوداً في يومي. وحتى عندما عادت الدراسة إلكترونياً، لم يكن لديَّ ما يتيح لي العودة إليها، فلا كهرباء، ولا إنترنت.

لم يكن انقطاع الدراسة هو الشيء الوحيد الذي تغير، مع امتداد الأيام، لم أعد أقيس الحياة بالمحاضرات أو الاختبارات، بل بما يمكن أن نحمله معنا إذا اضطررنا للنزوح مرة أخرى. لم يأتِ النزوح دفعة واحدة، بل تسلل إلى التفاصيل الصغيرة، حقيبة تُجهَّز على عجل، أوراق أحرص على ألا أنساها، ونظرة أخيرة إلى البيت أحاول فيها أن أحفظ ملامحه قبل أن أغادره.

في الطريق، لم يكن الرحيل يشبه أيَّ انتقال عرفته من قبل. كانت المسافات أطول من قدرتنا على الاحتمال، والوجوه من حولي تحمل التعب نفسه، والسماء تُمطر قنابل، وكأنها تخبرنا أن نزوحنا هذا جاء قبل لحظات من فوات الأوان. وأفكر هل نزلت إحدى هذه القنابل على منزلي الحبيب. كان سؤال واحد يرافقنا جميعاً: أين يمكن أن نذهب؟ منذ تلك اللحظة، لم يعد المكان بالنسبة إليَّ عنواناً، بل صار شعوراً أحمله معي أينما ذهبت، وخوفاً دائماً من أن أفقده.

أذكر أن أحد أساتذتي أرسل لي رسالة يوماً: " أين أنتِ يا شروق، ها قد بدأ التسجيل لمساق بحث التخرج الذي طالما انتظرتِه، لماذا اسمك ليس بين الطالبات المسجلات؟" أخبرته أن ظروفي لم تترك لي طريقاً إلى الجامعة، أغلقت الهاتف وبكيت طويلاً. لم يكن يؤلمني أنني تأخرت، بل أنني لم أتأخر بإرادتي. شعرت لأول مرة أن الحرب لا تسرق البيوت أو الأشخاص فقط، بل تسرق الإحساس بأن الإنسان قادر على الوصول لأحلامه.

بعد أشهر، افتُتحت مساحة عمل صغيرة بالقرب من منطقتي، وكانت المكان الوحيد الذي أستطيع أن انضم منه إلى محاضراتي وأقدم اختباراتي. لم يكن الطريق إليها مجرد مسافة أقطعها، بل رحلة شاقة أعبر فيها وجه الحرب كل يوم. كنت أمشي تحت صوت طائرات الكواد كابتر التي لم تكن تغادر السماء، وقلبي الصغير كما تسميه أمي

يرتجف خوفاً، وأتجنب قدر استطاعتي النظر إلى الأطفال الواقفين بطناجرهم أمام التكيّة، ينتظرون دورهم لعلهم يحصلون على ما يسكت جوع بطونهم الخاوية. لكن بعض المشاهد لا تتركنا مهما حاولنا المضي، أتذكر أنني مررت يوماً بجانب خيمة، وكان أب يقف عند بابها يخفي خلف ظهره كيساً من الطحين. ابتسم لأطفاله وقال: "احزروا شو جبتلكو؟ " قفزت طفلته بسرعة وقالت: "طحين؟"

ابتسم وقال: "آه" .

فنظرت إليه بعينين لا تصدقان، وقالت: "قول والله."

فأجابها: "والله."

في لحظة واحدة ارتمى الأطفال بعضهم في حضن بعض من شدة الفرح، وأخذت الأم تردد: "الحمد لله. الحمد لله."

لا أعرف كيف أكملت طريقي يومها، ولا كيف حضرت محاضرتي. كل ما أعرفه أنني عندما عدت إلى البيت، بكيت طويلاً. لم أبكِ على تلك العائلة وحدها، بل على وطنٍ كامل تغيَّر حتى أصبح كيلو طحين كافياً ليصنع كل هذا الفرح. فالحرب غيرت معنى الأشياء التي كنا نظنُّها بديهية.

اليوم، عندما أحاول أن أتذكر جامعتي، لا أتذكر المباني أولاً. أتذكر ضحكات زميلاتي، والانتظار أمام القاعات، ورائحة القهوة التي كانت تسبق المحاضرات. يبدو أن الأماكن لا تختفي حين تُهدم، بل حين نعجز عن تذكرها، ولذلك أتمسك بكل تفصيلة أخشى أن يأخذها الزمن مني. أما المستقبل، فلم يعد يشبه المستقبل الذي رسمته وأنا في السابعة عشرة. صار أكثر غموضاً، لكنه صار أكثر صدقاً أيضاً. وصلت إلى التخرج، لكن الطريق الحقيقي يبدأ من هنا. وما زلت أحلم بأن أعيش الحياة التي اجتهدت طويلاً لأصنعها.

اسمي شروق. وأحياناً أشعر أنني أتشبَّث بمعناه أكثر من أيِّ وقت مضى. فالشروق لا يلغي الليل، لكنه يثبت أن الليل ليس النهاية. وأنا لا أريد أن أكون اسماً في قائمة، أو رقماً في خبر عابر. أريد أن أبقى كما حلمت وأنا طالبة في المدرسة، إنسانة تترك أثراً، وتحمل ذاكرتها ووطنها معها، حتى عندما يحاول العالم أن يأخذ منها كل شيء.

السؤال أكبر من القدرة على الإجابة

وسيم السيسي

برنامج حقوق الإنسان والعدالة الثقافية والاجتماعية
جامعة غولد سميث، بريطانيا

في كل مرة كان يسألني أحدهم فيها: "وماذا ستفعل الآن؟" كنت أشعر أن السؤال أكبر من قدرتي على الإجابة، كان

التيه يسيطر على تفكيري، ويتزاحم الشعور في قلبي، متراكماً في آخر المطاف على شكل غصة في حنجرتي، فلا كلمات تصف ولا ردة فعل تترجم الشعور.

خرجت من غزة في خضمّ الحرب، أحمل معي أكثر مما يظهر في حقيبة سفر: حملت ذكريات لم أكن مستعداً لمغادرتها، وأماكن كنت أعتقد أنها ستبقى للأبد، وأشخاصاً لا أعرف متى سأراهم مرة أخرى، وأشخاصاً لن أراهم مرة أخرى.

خلال الإبادة، لم يكن التحدي بالنسبة لي أن أنجو من يومٍ إلى آخر فقط، كان التحدي الأكبر أن أحافظ على قدرتي على الحلم بينما كل شيء من حولي يدفعني للتخلي عنه. كان كل ما لدينا حلم يمكن أن نتشبث به لنقدر على مجاراة الحياة برعبها ومرارتها.

بين الأخبار الثقيلة، وحالة عدم اليقين، والخسارات التي عاشها كل بيت تقريباً في غزة، وظروف الموت والحزن الذي خيم على حياتنا (والذي لن أطيل في شرحه وسرد تفاصيله، فكل من في هذه الأرض يعرف التفاصيل، وإن كان من يقرأ هذا النص لا يعرف التفاصيل في غزة، فلا حاجة له ليكمل القراءة) وجدت نفسي أبحث عن فرصة دراسة، عن منحة، عن عمل، عن باب صغير يمكن أن يقودني نحو مستقبل ما. كنت أجلس ساعات أملأ استمارات التقديم وأكتب عن خططي وأهدافي، بينما كنت أحاول في الوقت نفسه استيعاب ما يحدث لوطني ولعائلتي ولأصدقائي.

كان الأمر يبدو غريباً أحياناً. كيف يمكن لإنسان أن يكتب رسالة دافع لجامعة بينما يسمع كل يوم أخبار الفقدان والدمار؟ كيف يمكنه أن يخطط للسنوات القادمة بينما لا يعرف ماذا سيحمل له الغد؟ كيف يمكن لكلمة " دافع" أن تأخذ مساحة في العقل بين صوت المدافع؟ ومع ذلك، واصلت المحاولة، ليس لأنني أقوى من غيري، بل لأنني، مثل آلاف الشبان والشابات من غزة، أدركت أن التوقف يعني أن الحرب لم تكتفِ بسرقة الحاضر، بل نجحت أيضاً في سرقة المستقبل. ولا أظن أن هناك ما يقهر الشاب في ريعان شبابه إلا أن يرى مستقبله يسرق.

كنت أرى الآخرين يبنون حياتهم بشكل طبيعي، وأصدقائي من حول العالم، يرسلون لي التعازي في فقدي، وينشرون منشوراً على وسائل التواصل الاجتماعي، أو "ستوري" لحفل تخرجهم أو لإنجاز جديد. كنت أفرح لهم من كل قلبي، ولكن لن أنكر، كانت هناك لحظات كثيرة من الشك والإحباط، لحظات شعرت فيها أن العالم يتحرك بسرعة بينما أقف أنا في مكاني، بينما كنت أحاول فقط أن أجد أرضاً ثابتة أقف عليها من جديد.

لكن شيئاً ما ظلَّ يدفعني إلى الأمام، ربما هو إيماني بأن الإنسان أكبر من المأساة التي يعيشها. وربما هي رغبتي في أن أكون أكثر من مجرَّد قصة نجاة، فأنا لا أريد أن أُعرَّف بما فقدته فقط، بل بما ما زلت قادراً على تقديمه وصناعته، أو ربما هذا نحن ذوو الدم الفلسطيني!

رحلة البحث هذه لم تكن رحلة من غزة إلى بلدٍ آخر فحسب، كانت رحلة لإعادة اكتشاف نفسي بعد أن تغير كل

شيء، رحلة تعلمت فيها كيف أحمل الحزن والأمل معاً، وكيف أبدأ من جديد دون أن أنسى المكان الذي جئت منه. اليوم ما زلت أبحث وأتعلم وأخطط، وما زلت أؤمن أن المستقبل يستحق المحاولة. فربما يكون أحد أكثر أشكال الصمود هو إنسانية تستمر في بناء حياتك بينما يحاول كل ما حولك إقناعك بأن الحياة توقفت.

في غزة بين هويتين متلازمتين: صحافي، وطالب

أنس النجار

ماجستير الإذاعة والتلفزيون، كلية الإعلام
جامعة القاهرة، مصر

أكتب متذكراً ويقظاً أوقات استيقاظي مع كل صباح جاء لأقطع الطريق إلى مدينة غزة، لدراستي الأكاديمية، وعملي الذي يفصله مسافة قريبة عن جامعة الأقصى، لتصبح هذه الرحلة جزءاً من حياتي اليومية.

أنا أنس النجار، فلسطيني من مدينة خان يونس جنوب قطاع غزة. أُقيم حالياً في القاهرة. بعد السفر من غزة خلال حرب الإبادة، أكتب هذا النص من ذاكرة الوجدان الفلسطيني ورحلته التي لا تنتهي. حفظت تفاصيل الطريق كما يحفظ الإنسان ملامح أحبَّته: الحقول الزراعية الممتدة على جانبي الطريق، ورائحة البحر وهي ترافقنا كلما اقتربنا من شارع الرشيد الممتد على طول الساحل، وشوارع اعتدت المرور بها، فأصبحت قبل الحرب علامات أعرف بها الطريق، ومحلات تجارية في مدينة تسكنها أصوات أهلها الأصلاء، وحركاتهم من المشي والجلوس والحديث على رصيف الطرقات، ووجوه كنت أراها كل يوم، رسمتها في ذاكرتي. لم تكن تلك مجرد أماكن أعبرها، بل كانت جزءاً من ذاكرتي وتكويني، صنعت علاقة عميقة بيني وبين المكان. اليوم، بعد أن غيَّرت الحرب ملامح الكثير من هذه التفاصيل، أدرك أن المكان لا يغيب حين يتغير، بل يبقى حياً في الذاكرة، نحمله معنا أينما ذهبنا، ونستعيده في كل خطوة نحو المستقبل.

استكمالاً لرحلتي الأكاديمية، بعد حصولي على درجة البكالوريوس خلال الحرب على غزة، التحقت ببرنامج الماجستير في كلية الإعلام بجامعة القاهرة. رحلتي مع التعليم لم تكن يوماً رحلة أكاديمية تقليدية. فمنذ سنوات الدراسة الجامعية الأولى لتخصص الإذاعة والتلفزيون بجامعة الأقصى في غزة، ارتبطت الدراسة بالنسبة لي بواقع مليء بالتحديات، قبل أن تتحول لاحقاً إلى اختبار حقيقي للإرادة والصمود.

مع اندلاع الحرب وما رافقها من تغيرات جذرية في الحياة اليومية، انتقلت الدراسة إلى النظام الإلكتروني، وأصبحت أتنقل يومياً بين هويتين متلازمتين: صحفي يتابع الأحداث ويغطي تفاصيلها، وطالب يحاول أن يحافظ على مساره الأكاديمي وسط واقع لا يوفر الحدَّ الأدنى من الاستقرار. كنت أتابع المحاضرات وأستعد للامتحانات في الوقت الذي كنت أعمل فيه على تغطية الأحداث الميدانية داخل قطاع غزة، محاولاً الموازنة بين متطلبات الدراسة وضغوط العمل الصحفي في واحدة من أكثر الفترات تعقيداً في حياتي.

لاحقاً، اضطررت إلى مغادرة قطاع غزة برفقة زوجتي وأطفالي. كان الخروج بالنسبة لي أكثر من مجرد انتقال جغرافي، كان ابتعاداً قسرياً عن المكان الذي تشكَّلت فيه ذاكرتي وحياتي المهنية والأكاديمية. وعلى الرغم من ذلك، واصلت دراسة البكالوريوس عن بُعد حتى حصلت على شهادتي الجامعية، قبل أن أبدأ مرحلة جديدة من رحلتي التعليمية بالالتحاق ببرنامج الماجستير في قسم الإذاعة والتلفزيون بكلية الإعلام في جامعة القاهرة.

لكن التحدي الأكبر لم يكن في الدراسة نفسها، بل في القدرة على التركيز والاستمرار بينما يعيش أهلي وأقاربي وأصدقائي في غزة ظروفاً قاسية يوماً بعد يوم. كنت أحاول قراءة المراجع الأكاديمية والاستعداد للاختبارات، بينما يبقى جزء كبير من تفكيري معلقاً بالأخبار القادمة من هناك. وحتى بعد انتقالي إلى مصر، لم تنقطع صلتي بالميدان، فما زلت أعمل في المجال الصحفي وأتابع بشكل يومي زملائي وفريق العمل الموجود داخل القطاع، الأمر الذي جعل الحرب حاضرة في تفاصيل حياتي اليومية مهما ابتعدت عنها جغرافياً.

وربما أكثر ما يرافقني خلال هذه الرحلة هو ما يمكن وصفه بذاكرة المكان. فالكثير من الأماكن التي صنعت تفاصيل حياتنا في غزة لم تعد موجودة كما عرفناها. شوارع مررنا بها مئات المرات، ومبانٍ وجامعات ومنازل ارتبطت بذكرياتنا، تغيرت ملامحها أو اختفت تماماً. لكن المكان بالنسبة لي لم يكن يوماً مجرَّد حجارة أو أبنية. فما زلت أحمل في ذاكرتي تفاصيله الصغيرة: الطرقات التي سلكتها إلى الجامعة، والأصدقاء الذين شاركوني سنوات الدراسة، والزوايا التي شكَّلت جزءاً من قصتي الشخصية. قد يغيب المكان عن الواقع، لكنه يبقى حاضراً في الذاكرة، حياً في الوجدان، ومرافقاً لكل خطوة نحو المستقبل.

خلال فترة الامتحانات الأخيرة، فقدت أحد أصدقائي في غزة إثر الحرب. كان الخبر صادماً ومؤلماً إلى درجة شعرت معها بأن قدرتي على التركيز تكاد تتلاشى. لكنني أدركت أن الاستسلام لهذه الظروف يعني خسارة ما تبقى من الأمل. لذلك حاولت أن أحوِّل الألم إلى دافع، وأن أتمسك بحقي في التعليم باعتباره شكلاً من أشكال المقاومة والصمود.

بالنسبة لي، كما هو الحال بالنسبة لكثير من الطلبة الفلسطينيين، لم يعد التعليم مجرَّد وسيلة للحصول على شهادة أكاديمية، بل أصبح رسالة تتجاوز حدود القاعات الدراسية. إنه محاولة للحفاظ على المستقبل في مواجهة واقع مليء بالخسارات، وإثبات أن الحرب، مهما كانت قاسية، لا تستطيع أن تنتزع من الإنسان حقَّه في الحلم أو قدرته على الاستمرار. فالمكان قد يتغير، والظروف قد تشتد، لكن الذاكرة والأمل يظلان قادرين على رسم الطريق نحو الغد.

معاناة طالب توجيهي في ظلِّ الحرب

فضل نهاد شناعة

طالب ثانوية عامة

مدرسة شهداء المغازي، فلسطين

اسمي فضل شناعة، طالب في المرحلة الثانوية العامة (التوجيهي). لم تكن رحلتي الدراسية رحلة عادية، بل كانت مليئة بالتحديات والصعوبات التي فرضتها الحرب المستمرة وما رافقها من ظروف قاسية أثَّرت في كل تفاصيل حياتي. فمنذ سنوات أحاول التمسك بحلمي لإكمال تعليمي وإصراري لتحقيق النجاح، رغم أن الواقع من حولي جعل هذا الحلم أكثر صعوبة مما كنت أتخيل. على مدار ثلاث سنوات، لم أعش حياة الطالب التي كنت أطمح إليها. ففي الوقت الذي كان من المفترض أن أنشغل فيه بالكتب والدروس والاستعداد للامتحانات، وجدت نفسي أواجه ظروفاً قاسية تجعل التركيز على الدراسة تحدياً يومياً. لم تكن البيئة المناسبة للتعلم متوفرة دائماً، بسبب الضغوط النفسية، والقلق على مستقبل يرافقانني كل يوم.

فرضت الحرب واقعاً مختلفاً على حياتي، فأثَّرت في انتظام الدراسة، وجعلت متابعة الدروس أمراً شاقاً، خاصة مع الصعوبات المتعلقة بتوفر الكهرباء والإنترنت والوسائل التعليمية. وفي كثير من الأوقات كنت أحاول استغلال أيِّ فرصة للمذاكرة، لأنني كنت أدرك أن كل ساعة دراسة تقرِّبني خطوة من تحقيق هدفي.

لم تكن المعاناة تعليمية فقط، بل كانت نفسية أيضاً. فالخوف وعدم الاستقرار والقلق على الأسرة والمحيط تركت أثراً كبيراً في نفسي، ومع ذلك كنت أحاول أن أتمسك بالأمل، لأنني أؤمن أن العلم هو الطريق الذي يمكن أن يساعدني على بناء مستقبلي وخدمة مجتمعي. وعلى الرغم من كل هذه التحديات، لم أفقد إيماني بأن النجاح يستحق الصبر والتعب. كنت أذكر نفسي دائماً بأن الظروف الصعبة لا ينبغي أن تكون نهاية الأحلام، بل قد تكون دافعاً لمزيد من الإصرار. لذلك واصلت السعي والاجتهاد، على أمل أن يأتي اليوم الذي أحصد فيه ثمرة هذا الصبر.

رسالتي إلى العالم هي أن الطالب الفلسطيني لا يطلب سوى حقّه في أن يتعلم في بيئة آمنة ومستقرة، وأن يحلم بمستقبل أفضل مثل أيِّ طالب في العالم. وأنا، فضل شناعة، سأبقى متمسكاً بحلمي، مؤمناً بأن الإرادة قادرة على تجاوز أصعب الظروف، وأن العلم سيظل النور الذي يقودني نحو مستقبل أفضل مهما اشتدت التحديات.

الكتابة من شرفة الذاكرة

سما المصري، فلسطين (غزة)

قسم الأمن السيبراني، كلية الحاسبات والذكاء الاصطناعي
جامعة القاهرة، مصر

لم تكن الحرب حدثاً عابراً في نشرات الأخبار، بل كانت اللحظة التي انقسم فيها الزمن إلى ما قبل وما بعد. كنت طالبة تحمل حلماً بسيطاً: أن أكمل دراستي، وأن أكتب، وأن أبني مستقبلي مثل أيِّ شابة في العشرين من عمرها. لكن حرب الإبادة في غزة جعلت كل شيء معلقاً، حتى أبسط الأحلام.

عندما أتيحت لي فرصة الخروج من القطاع، لم أتردد في اتخاذ القرار. كنت مقتنعة أن التعليم هو الشيء الوحيد الذي يجب أن أتمسك به مهما كانت الظروف. بالنسبة لي، كان الخروج محاولة لحماية حقي في التعلم، لأنني أؤمن أن العلم هو السلاح الوحيد الذي نستطيع حمله معنا أينما ذهبنا، وهو الشيء الذي لا تستطيع الحرب أن تنتزعه منا.

وصلت إلى مصر وأنا أحمل غزة معي، لكن الأشهر الأولى لم تكن سهلة. لم تكن الصعوبة في الانتقال إلى بلد جديد، بل في استيعاب عالم مختلف تماماً. للمرة الأولى رأيت حياة تستمر بشكل طبيعي، بينما كانت مدينتي تُباد. الجامعات تفتح أبوابها، الناس تخطط لغدها، المقاهي مليئة بالحياة، بينما كنت أحاول أن أستوعب أن غزة أصبحت تعيش زمناً منفصلاً عن بقية العالم، وكأنها وحدها خارج هذا الإيقاع.

حتى بعد خروجي، لم تخرج الحرب مني. لأسابيع طويلة كنت أسمع صوت "الزنانة" وكأنها ما زالت تحلق فوق رأسي، وكأن ذاكرتي رفضت أن تصدق أنني أصبحت في مكان آخر. احتجت أشهراً حتى بدأ ذهني يفرِّق بين الخوف الحقيقي والخوف الذي بقي يسكنني، وحتى يصدق أن هذا الهدوء حقيقي.

كانت الأعياد ولا تزال من أصعب المحطات. للمرة الأولى مرَّ العيد دون والدي، الذي بقي في غزة. فأدركت حينها أن الحرب لا تنتهي عندما يغادر الإنسان مكانها، بل تستمر في الغياب الذي يتركه، وفي المقعد الفارغ على مائدة العائلة، وفي كل مناسبة كان من المفترض أن تجمعه مع أحبته.

بعد نحو ثلاثة أشهر بدأت رحلة البحث عن جامعة لاستكمال دراستي. لم يكن الأمر سهلاً، فقد اضطررت إلى إعادة سنة دراسية كاملة والبدء من جديد. شعرت بثقل ذلك في البداية، لكنني سرعان ما أدركت أن البدء من الصفر ليس جديداً على أبناء غزة. اعتدنا أن نعيد بناء ما تهدم، وأن نبدأ مرة أخرى، مهما كانت الخسائر.

التحقت بجامعة القاهرة لدراسة هندسة الأمن السيبراني، وها أنا اليوم على أعتاب سنتي الثالثة. ما زالت أحلامي

مستمرة، حتى وإن غيّرت الحرب علاقتي بها. لم أعد أحتفل بالإنجازات كما كنت من قبل، وأحياناً يبدو كل شيء صغيراً أمام حجم الفقد الذي نحمله معنا. لكنني، رغم ذلك، أواصل السير.

لا أعرف متى سأعود إلى غزة، ولا أعرف كيف ستبدو عندما أراها من جديد. لكنني أعرف أن الوطن لا يُقاس فقط بما بقي من الحجر، بل بما بقي فينا من قدرة على التذكر، وعلى الحلم، وعلى الاستمرار. ولهذا أكتب. ليس لأن الكتابة تُنهي الألم، بل لأنها تمنعه من أن يتحول إلى صمت، أو إلى ندوب وعلامات على أجسادنا وأرواحنا، وتمنح ذاكرتنا فرصة لتبقى حية، حتى يعود الوطن إلى أهله.

قد نُجبر على البدء من الصفر مرات لا تحصى، لكننا سنبقى هنا كما هناك، نصنع لأنفسنا ولأحلامنا ولادة جديدة. فنحن، وربما نحن وحدنا، نعرف جيداً كيف تكون النقطة صفر بداية، لا نهاية. بعد الخروج من غزة خلال حرب الإبادة، تمسكت بقوة الكلمة، مؤمنة بالكتابة بوصفها فعلاً للتوثيق ولحفظ الذاكرة، وعملت كمؤلفة مشاركة في إنجاز كتاب، بعنوان:

فلسطين، الإنسانية المخذولة: تأملات وشهادات حول الإبادة الجماعية في غزة

Paolo Scalia and Sama Al Masri, *Palestina, l'humanità tradita. Riflessioni e testimonianze sul genocidio a Gaza* (Milan: PGreco Edizioni, 2026).

باسم المخيم لم أمُت

هلا خالد فريج، فلسطين (غزة)

بكالوريوس اللغة الإنجليزية، كلية التربية
جامعة الأقصى، فلسطين

صبيحة 7 تشرين الأول/ أكتوبر 2023، كنت على موعد مع اختبارين في سنتي الجامعية الثالثة. لم أدرك أن هذا اليوم سينهي حياة جامعية مألوفة، ويقذف بي في مسيرة سنتين عصيبتين للحصول على شهادتي الجامعية. توقف التعليم وتوقفت الحياة، وبقيت في شمال غزة الذي بات معزولاً عن العالم بلا أدنى مقومات للحياة.

في نيسان/ أبريل، أعلنت جامعات الضفة الغربية مساندتها لطلاب الجامعات الغزية باستكمال دراستهم إلكترونياً مع طلابها. انضممت لجامعة النجاح، إلا أن شريحة "السيليكوم" خذلت أملي بتعطلها. ولم يتوقف الأمر عندها فقد تلاها الاجتياح الثاني لمخيم جباليا في أيار/ مايو.

وفي نهاية تموز/ يوليو، وبعد عشرة أشهر من انقطاع الدراسة، أعلنت جامعتي استكمال الدراسة إلكترونياً لمن يستطيع ذلك، وبدأت سنتي الجامعية الثالثة في نهايتها تقويمياً. كنت أصعد إلى السطح، فهناك فقط تتوفر شبكة الشريحة "الإسرائيلية"، وأحياناً أصعد إلى أعلى السلم الحديدي لأتمكن من تحميل ملف أو رفع تكليف أو تقديم

اختبار، ناهيك عن فصل الشبكة المتكرر بسبب القصف أو تشويش الزنَّانات. ولا يخفى الخطر الداهم في بقائي طويلاً على السطح تحت تلك الطائرات والقذائف العشوائية.

ومع بدء الفصل الثاني في تشرين الأول/ أكتوبر 2024، أعلن الاحتلال العملية الثالثة على مخيمنا (مخيم جباليا). كنتُ ألخص موادِّي الدراسية خلال حصارنا علّي أتناسى قلق مستقبلنا المجهول. وفي السابع عشر من ذات الشهر، فجَّر الاحتلال منزلنا ومنازل أخرى من حارتنا. ذهبت إلى ركام منزل عمي حيث كنا نحتمي. كل ما أريده هو أن أجد هاتفي ودفتر التلخيص فهما يشكِّلان ما تبقَّى لديَّ من أمل لاستكمال الدراسة، فقد كنت ألخِّص المساقات على هاتفي، إذ لا مكتبات تعمل لتطبع الكتب. واستمر ذلك الحال على مدار الفصول الدراسية الأربعة. وجدت الدفتر ممزقاً، أخذته واستكملنا رحلة النزوح.

وصلت الشيخ رضوان، وفتحت صفحتي الدراسية بعد أكثر من أربع ساعات على نافذة الشرفة لأجد زميلاتي قد انتهين من تقديم الاختبارات النصفية وتسليم بعض التكاليف. حينها، كنت بين خيارين أحلاهما مرّ: استكمال الفصل والاكتفاء باحتساب الاختبارات النهائية، أو سحبه بالكامل وتأخر فصل دراسي. فاستكملتُ الفصل الأكثر إرهاقاً خلال مسيرتي الدراسية، وحصلت على معدل 92 ,93 ٪، وكان الأقل طيلة السنوات الأربع. افتتحنا السنة الدراسية الرابعة في شهر كانون الثاني/ يناير 2025 بخبر الهدنة التي لم تكتمل... سنة تلخصت بساعات انتظار أمام الشبَّاك لتحميل محاضرة أو رفع واجب، وانقطاع الكهرباء والإنترنت، والشكر للكشَّاف الأخضر الذي استمر معي سنة يتحمل معي برد الشتاء القارس ويساعدني في قتل البعوض المتربِّص الذي لا يتركنا طوال العام.

بدأ الفصل الثاني، آخر فصل في مسيرتي الجامعية وسنتي الحرب العجاف. أربعة أشهر من الدراسة تزامنت مع المجاعة. كنت أحمد الله أن الدراسة تمنحني شيئاً يلهيني عن الجوع. صدر جدول الاختبارات النهائية، وبدأت المجاعة بالانحسار، ليعلن جيش الاحتلال "الإسرائيلي" حملته العسكرية على غزة. بدأت الاختبارات والقصف يتزايد، الاحتلال يتقدم أكثر نحونا، وشقتنا تكتظ بالنازحين، وهلا تحمد الله أن الكشاف يعمل من جديد مسلطاً ضوءه على عينيَّ فأتخذ منه عازلاً عما يحدث حولي. بدأت الاختبارات الساعة الحادية عشرة صباحاً. أستيقظ باكراً، وأصلي ركعتين، ثم أذهب لتقديمها في نقطة الإنترنت الأقرب من مكان سكني، وهي النقطة الأضمن إذا حصل تقدُّم عسكري.

أنهيت دراستي في 4 أيلول/ سبتمبر 2025، وكان هاتفي قد أعلن تخرجَه قبلي، فقد تعطَّل بعد أن حمل معي أربعة فصول من الكتب والاختبارات والتكاليف! انتهت الحرب في العاشر من تشرين الأول/ أكتوبر 2025، وصدرت آخر درجة، لأنهي بها سنتين شداد بأربعة فصول دراسية في كل منها كان فصل من الأحداث المأساوية التي لا يمرُّ يوم دونها. تخرجت بمعدل 95.42 % بالمرتبة الأولى على دفعتي، مسطرةً نجاحاً جديداً يضاف إلى مسيرتي الأكاديمية المكلَّلة بالتفوق الذي لم أتخلَّ عنه تحت أيِّ ظرف. ولم أسمح للإبادة أن تقطع طريقاً سلكته، أو أن تجعلني أنقض عهدي الذي عاهدته لنفسي حال انتسابي للكلية—ألا أتخرج إلا بالمرتبة الأولى. لم تنتهِ القصة بعد، فلكلِّ غزِّي حكاية طويلة من الجدِّ والكفاح... وآمل ألا تنتهي قصتي عند هذه النقطة.

رسالة من زمن الحرب

نرمين صمصوم، فلسطين (غزة)

بكالوريوس المحاسبة
جامعة القدس المفتوحة، فلسطين

قُطعت الكهرباء عن مدينة غزة منذ أول يوم في حرب الإبادة، وتلت ذلك انقطاعات أكثر وأكبر. في تلك الأيام كنت على مشارف إنهاء آخر فصل دراسي لي في الجامعة، لكنني اضطررت إلى تأجيله سنة كاملة بسبب انقطاع الإنترنت والتيار الكهربائي. كان ذلك استسلاماً لظروف قاهرة، وكنت أعبِّر عن هذا الاستسلام بالرسم في أحيان كثيرة وعلى مدار السنة.

الحرب بشعة بكل أشكالها، لكن هذه الحرب كانت استثنائية، فكل مرحلة مرَّت خلال زمن الحرب، جعلتنا "نشتاق" إلى المرحلة التي سبقتها، لكنها من أولها إلى آخرها كانت حرباً لا سابقة لها.

بدأت الجامعات تمارس "عملها" إلكترونياً، وعادت المدارس "تفتح أبوابها" إلكترونياً كذلك. لكن حتى مع هذه الحلول كانت الظروف قاسية، وحين كنت أريد أن أحضر محاضرة أمشي مسافة بعيدة لأجد كافيتيريا هادئة نوعاً ما، فالبلد كلها أصبحت خيماً، والناس محشورة في الشوارع. كنت أمشي مسافة أخرى لأشحن هاتفي، هذا عدا أيام الامتحانات والمشي مجدداً، والبحث عن الهدوء—والبحث عن مكان قد يكون آمناً و"لا يمكن استهدافه". لكن وجود مكان آمن في غزة كذبة كبرى، ذلك أن كل الأماكن مستهدفة، وكل الأرواح مستباحة.

تذكَّرت، وأنا أكتب هذا النص، الدراسة في ليالي الحرب: كنت مرة أدرس امتحان مادة صعبة في ليلة ارتكبوا فيها مجزرة راحت ضحيتها عائلة كاملة مُسحت من السجل المدني. صباح اليوم التالي كنت أردِّد: "زرعوا في داخلي شيء أكثر، أكثر على الدوام، مثل صيغة مُبالغة".

غزة لم تكن مثالية، لكنها كانت دافئة. لم نكن سعداء، لكننا نحبها ونحب صورتها—صورتها التي أردنا أن تبقى في الذاكرة كما هي: غزة البسيطة، غزة اللعنة التي تطاردنا أينما كنا...

كان الكرسي في مكانه. أما نحن، فلم يعد أحدٌ منا في مكانه

لانا نضال حمد، فلسطين (غزة)

كلية الطب

جامعة الأزهر، فلسطين

الجامعة ربيع حياتي. هناك كبرت أحلامي بهدوء، بين العيادات والمختبرات. تعلَّمت أن أمسك أدواتي بثقة، وأن أقترب كل يوم من الحلم الذي رافقني منذ طفولتي: أن أصبح طبيبة أسنان. كانت همومي بسيطة، تدور حول امتحان يقترب، أو تدريب عملي أخشى ألا أتقنه كما أريد. لم يخطر ببالي يوماً أن أغادرها على عجل، دون أن أعرف أن ذلك اليوم قد يكون آخر لقاء بيني وبين الحياة التي أحببتها.

حين عدت إلى الجامعة بعد الحرب، شعرت أنني أدخلها للمرة الأولى. لم يكن في الممرات ذلك الضجيج الذي اعتدناه، ولا الوجوه التي كانت تمنح المكان دفأه، حتى أجهزة التدريب التي قضينا ساعات طويلة نتعلم عليها كانت معطَّلة، يكسوها الخراب. وكأن الحرب مرَّت بها كما مرَّت بنا، وتركت فيها ندبة لا تُخفى. ومع كل خطوة قادتني إلى ردهة الكلية التي لم تكن بالنسبة لغيرنا سوى مساحة نعبرها كل صباح، لكنها بالنسبة إلينا كانت بداية الحكاية. هناك كنا نلتقي قبل المحاضرات، نتبادل الملاحظات، ونضحك على أمور تبدو اليوم بعيدة إلى حدٍّ يؤلم.

لفت نظري الكرسي الذي اعتدنا أن نجلس حوله، كان لا يزال في مكانه، هادئاً، كأن الزمن توقَّف عنده وحده. بقي الكرسي، أما نحن فلم نبقَ—تفرَّق أصدقائي: بعضهم غادر غزة، وبعضهم ابتلعته طرق لم نخطط للسير فيها يوماً. وقفت أمام الكرسي طويلاً، لا أحدِّق في قطعة أثاث، بل في سنوات كاملة من عمري. شعرت أن المكان لم يفقد أصواتنا فقط، بل احتفظ بها في صمته، وكأنه يرفض أن يصدق أننا لن نجتمع حوله مرة أخرى.

في تلك اللحظة، أدركت أنني لم أكن أفتقد أصدقائي وحدهم، بل أفتقد نفسي أيضاً—تلك الطالبة التي كانت تدخل الجامعة وهي منشغلة بموعد امتحان أو حالة سريرية، لا بأخبار الحرب. الطالبة التي كانت تضحك من قلبها، وتؤمن أن المستقبل ينتظرها بصبر. تركتُ جزءاً منِّي في ذلك المكان، ولا زلت، كلَّما عدت إليه، أحاول أن أجده بين الممرات وذلك الكرسي الذي بقي شاهداً على حياة لم تكتمل.

في جباليا، عرفتُ شكلاً جديداً من الوحدة. امتدت الأيام ببطء، وملأ الصمت المكان، بينما كنت أبحث عن أيِّ شيء يعيدني إلى نفسي. انقطع الإنترنت تماماً، وبدا ذلك الانقطاع شبيهاً بمستقبلنا في تلك الأيام معلَّقاً بين الانتظار والمجهول. كلَّما شعرت بالضيق، فتحت هاتفي وتنقَّلت بين الصور ومقاطع الفيديو، أبحث عن نافذة صغيرة تُطلُّ على حياة لا زالت موجودة في مكان آخر. أتوقَّف طويلاً عند صورة لي بملابس العيد. يحمل الفستان الأصفر ذكرى لم تعد كما كانت: لون أحببته يوماً، ثم ارتبط في ذاكرتي بـ"الخط الأصفر"، وببيتنا الذي يقع عليه. "الخط الأصفر"

مصطلح لم أكن أعرفه قبل الحرب، ولو سمعته يوماً لتخيَّلت معنى مختلفاً تماماً، أما الآن فقد أصبح يحمل داخلي حكاية مكان فقدته. وأعود إلى صورة الطعام الذي أعدَّه أبي لنا بحب، أو صورة الكعكة التي جمعتنا حول لحظة بسيطة من الفرح. وكلَّما اشتد الجوع وأنا آكل رغيف الشعير الخشن، فتحتُ تلك الصورة، لأجد فيها مائدة أفتقد دفأها أكثر مما أفتقد طعامها. وأحياناً أشغِّل مقطعاً لي وأنا أغني في إحدى أمسيات "يراعات"... لا زلت أذكر الأغنية: "قلها بعشق صوتك لما بتقولي صباح الخير". يصلني صوتي القديم، فتعود إليَّ صورة الفتاة التي وقفت أمام الناس بثقة، تحمل حلمها معها، وترى في الأيام القادمة مساحة للموسيقى والدراسة والحياة.

تضاريس مطرَّزة...

فهد شهاب، فلسطين (غزة)

كلية الطب

جامعة الأزهر، مصر

جئت من مدينة لها من كل تضاريس هذا الكون، وحدّها بحر ونهر. لا أعرف اتساعها يصل إلى أين، لكنهم أوصلوني لما بعدها. رأيت بلادي مرة من علٍ، واتسع صدري على أكبر المرادفات: ماذا يعني الوطن، وأنا أتوطَّن غربة تشبه إلى حدٍّ كبير كتاباً معلَّقاً أو لوحة تركت على حدود معلقة بين سماء وأرض.

عشت في بلاد لم يكن من حظِّي فيها سوى بحر وقليل من وجع. امتلكت فيها نهراً لكنه على الضفة الأخرى، ومنعت زيارتها مرتين، لكنني نجحت ببساطة في أن أرى النهر في قارة أخرى. ما يمنعني أن أحب النهر هذه المرة هو أنني فقدت فيه شخصاً ملأ عقلي بالذاكرة. النهر تلاقي وجع على ضفتين مختلفتين، فماذا تحاور ضفة ترى الأخرى مقابلها طوال الوقت؟ ضفة النهر التي على جهتي لا تشعر بالملل من الضفة الأخرى على الرغم من أنهما دوماً متقابلتان. لماذا لا تملُّ إحداهما الأخرى؟ لو أن الأشياء التي أحبها تكون مثل ضفة النهر، سيكون بمقدوري قطع النهر إليها، وسيكون بمقدوري مطالعتها طوال الوقت... لكن حظِّي فقط يقتصر على بحر لا شاطئ له. البحر يتلاشى مع محيط أوسع، وأفقد أنا كل أشيائي مؤقَّتة البقاء على شاطئ البحر هذا.

أجاد المغترب الذي يحيا داخلي كتابة كل الرسائل التي يتوجَّب عليه كتابتها، وأخذني من بعض الحنين إلى كل مفرق سؤال عن المكان في المدينة التي جئت منها. وحين ينأى المكان الذي أنا فيه عن شارع حارتي، أتذكر كل أصوات المدينة كيف كانت تعجُّ بالضباب—هذا الذي تشكَّل بعد طمس جال كل ذاكرتي. أذهب مع كل محطات التشبث لأن أحافظ على المدينة كما هي، كما كانت، لا إلى ما صارت إليه... لأنها ببساطة لم تعد قادرة على أن تكون صلبة كما كنت فيها. فمن خرج من البلاد وأفقدها بخروجه الرقَّة وسمح لوحوش كثيرة أن تسرق حقاً ليس لها، أن تتخذ من شوارعنا هناك خلف البعيد خيمة وخيبة مسكِّناً مؤقَّتاً لنا.

المؤقَّت الدائم الذي افترشناه كان يشبه إلى حدٍّ ما توأمة الأخوة، الرقة بين قماش الرسم وقماش الخيمة وكلاهما يحمي قلبي—قلبي الهش هذا، وغذاؤه الرقة، وقلبي الذي سكن الخيمة: "عائلتي ذات الستة أفراد من أب وأم ورجل صغير وثلاث أميرات طوَّعن حنينهن إليَّ بكل دعاء عرفنه لكيف نصون الودَّ مع أخٍ لنا في الغربة". هناك يسكن قلبي، ويجيد ثنائية التواجد بين محطة مترو وأخرى مثل التي أستخدمها في يومي العادي هنا.

ككل المؤقَّت الدائم الذي أصبحنا عليه، أجد صعوبة وهشاشة... فكيف يحقُّ لنا أن نزور المدينة مرة أخرى لنكون عند حسن ظنها بنا، وأن نأخذ عزاءها، ونرفع أصابعنا علامات نصر ودليل فرح علَّه يجد الطريق مرة أخرى إلى شارع الوحدة أو عمر المختار. وإذا زار حيَّ الشجاعية مرةً، سأذكر له برقَّة الباحث الشاب أن جدَّ جدِّي عمل هنا في محطة القطار التي كانت قبل عقد وأكثر. أنا لا أعود إلى المدينة لأنني كالكثيرين لم أخرج منها حتى اللحظة... لقد بقينا عند زمان/ مكان متجمِّد، حفظنا عندها لحظات التوقف أمام التشبث، والتكون والتلاشي عند كل اللحظات التي كتبنا فيها أسماءنا على أشجار حارتنا نوثِّق بلغة الطفل العنيد... إنني أمتلك حق القدوم إليها مهما ابتعدت. أجيد الآن القول إنني جئت من مدينة لها من كل تضاريس هذا الكون نصيب، وسأظل أذكر أنها البهية التي زرعت داخلي وطناً، وألزمتني سقايته بالحرف واللون كلما نشدت للحنين سؤالاً: "حين أعود هل ستنسين ثوبك المطرَّز خلف الخزانة وترتدين الوجع لي؟"

مرحبا دفتري، أتيتك وأنا مُتعبة

رويدة سلمان، فلسطين (غزة)

بكالوريوس الإعلام، كلية الإعلام
جامعة الأقصى، فلسطين

ما أحتاجه ضوء شمعة فحسب، لم أتوقع أناه في سنة 2024 يكون الحلم أو الأمنية هو "شمعة". كطالبة في عامها الأخير، تُحضِّر لبحث التخرج، كانت تجربتي تمرُّ بطرق وعرة ولَّدتها الظروف القاسية الملتفَّة حول بلادي من قصف وقتل وانعدام البنية التحتية وانقطاع الكهرباء. أضطر للاستيقاظ باكراً لإنهاء كتابة بحثي قبل غروب الشمس، فمع انسدال الشمس تنتهي الحياة. وانتظار الصباح هو ما يشغلنا فقط. في ليلة من ليالي الانتظار فكَّرت ما الدافع من أجل الاستمرار؟ لماذا مع كل ما نعايشه نستمر حيث إنه لا حياة مستمرة هنا... فقط الموت يحاوطنا، يكبِّلنا ويسيطر على المشهد؟ لم أجد الإجابة حقاً. ما أعرفه فقط هو أن العدو يُهزم بهذا القلم، بهذا الإصرار، وبهذه الروح.

مرحبا دفتري، أتيتك وأنا مُتعبة، مُتعبة حقاً. فمنذ قليل كنت أركض وراء شبكات الإنترنت من أجل الالتحاق بالاختبار الذي أعاد الدكتور فتحه لي لأنني لم أقدِّم بسبب سوء الإنترنت. هل يعقل حتى الفرصة الثانية لا

تُسعفني؟ ما هذا البؤس؟ فكَّرت مطوَّلاً بهذا الأمر... ليس بالاختبار، بل حياتي هنا. هل تُكتب لي فرصة كل يوم بالنجاة؟ ومتى سيحين الوقت؟ أفكار سوداوية تلاحقني لا أعلم لماذا يكبُّ الواقع علينا بشاعته دفعة واحدة. مواقف صغيرة وحقوق بسيطة... هذا ما نسعى له فقط: هدوء يحتوينا، فكر صافٍ سليم، وإكمال مسيرة العلم... لربما أحلامنا تصعب يوماً عن يوم، إلا أنه لا بدَّ لنا من مواجهة العذاب. أذكر طوال حياتي الدراسية كانت تأتي حروب كأنها مخيم صيفي أو شتوي تفصل بين مراحل الدراسة، لكن كهذه الحرب لم ترَ قط عيني. ربما لأنها سنة التخرُّج، فلا بدَّ من النجاة من هذه الإبادة للحصول على درجة البكالوريوس بجدارة.

***

طلبة غزة بين الحرب وذاكرة المكان الجامعي والمجتمعي

د. عبد الله كراز، فلسطين (غزة)

أستاذ الأدب والنقد في قسم اللغة الإنجليزية
جامعة الأزهر، فلسطين

لم تكن الحرب المدمرة في غزة مجرد حدث عابر في حياة الطلبة، بل أصبحت نقطة تحول عميقة غيَّرت مسارهم التعليمي والإنساني. فقد وجد آلاف الطلبة أنفسهم أمام واقع تتداخل فيه تحديات البقاء مع حقهم الأساسي في التعليم، فتحولت الدراسة من نشاط يومي منتظم إلى تجربة شاقة تتطلب الصبر والإصرار والقدرة على التكيُّف مع ظروف استثنائية. وبين النزوح وفقدان المنازل وتعطل المؤسسات التعليمية، برزت إرادة الطلبة في مواصلة التعلم باعتبارها شكلاً من أشكال الصمود والمحافظة على الأمل.

واقعياً، يمثل المكان الجامعي في الوعي الجمعي أكثر من مجرد مبانٍ وقاعات دراسية، فهو فضاء للمعرفة والحوار، وميدان لتكوين الصداقات، وبناء الشخصية، وصناعة الأحلام المهنية والمستقبلية. وفي زمن الحرب، تعرَّضت هذه الفضاءات لتغيُّرات جذرية، إذ تعطَّلت الحياة الأكاديمية أو انتقلت إلى بدائل مؤقتة، وفقد كثير من الطلبة فرص الالتقاء المباشر بأساتذتهم وزملائهم. ومع ذلك، بقيت الجامعة حاضرة في الذاكرة باعتبارها رمزاً للاستمرار والقدرة على النهوض، حتى وإن غابت جدرانها أو تعذر الوصول إليها.

كما أن المجتمع الغزي، بما يحمله من روابط اجتماعية متينة، لعب دوراً محورياً في دعم الطلبة خلال الأزمة. فقد تحولت البيوت ومراكز الإيواء والمساحات المجتمعية إلى أماكن للتعلُّم ما أمكن ذلك، وعملت الأسر على توفير الحدِّ الأدنى من البيئة التعليمية رغم قسوة الظروف. وأصبحت المبادرات التطوعية والتعليمية شاهداً على تمسك المجتمع بقيمة العلم، وإيمانه بأن الاستثمار في الإنسان هو الطريق نحو التعافي وإعادة البناء.

تحمل ذاكرة المكان الجامعي والمجتمعي بعداً ثقافياً يتجاوز حدود الجغرافيا، فهي ذاكرة ترتبط بالأصوات والصور والتجارب اليومية التي شكّلت هوية الطلبة: فالمكتبة التي كانت تحتضن ساعات القراءة، والساحة التي شهدت النقاشات والأنشطة، والممرات التي جمعت الزملاء، جميعها تحولت إلى رموز تستدعي الحنين والأمل معاً. إن هذه الذاكرة لا تقتصر على استرجاع الماضي، بل تسهم بحق في تعزيز الانتماء والإصرار على استعادة الحياة الأكاديمية متى توفرت الظروف.

وعلى الرغم من الخسائر الكبيرة التي تسببت بها الحرب، فإن تجربة الطلاب في غزة تقدِّم نموذجاً إنسانياً يعكس قدرة الإنسان على التمسك بالعلم في أحلك الأوقات. فقد أدرك كثير من الطلبة أن التعليم ليس مجرد وسيلة للحصول على شهادة، بل هو أداة لحماية الهوية، وبناء المستقبل، ومواجهة آثار الأزمات طويلة الأمد. ومن هنا، فإن الحفاظ على المؤسسات التعليمية، ودعم الطلبة نفسياً وأكاديمياً، وإعادة إحياء الذاكرة الجامعية والمجتمعية، يمثل مسؤولية مشتركة تسهم في استعادة الحياة الطبيعية وتعزيز فرص التنمية بعد انتهاء الصراعات. ويبقى التعليم أحد أهم ركائز الصمود، وتظل الجامعة رمزاً للأمل الذي يتجدَّد مهما اشتدت المحن والتحديات.

المعرفة تحت القصف: ذاكرة الأستاذ والطالب في غزة

د. محمود نافذ الناطور، فلسطين (غزة)

أستاذ أصول التربية الرياضية
جامعة الأقصى، فلسطين

في زمن الحرب، لم تعد حياة الأستاذ الجامعي والطالب في قطاع غزة مرتبطة بقاعات المحاضرات أو المكتبات أو الجداول الدراسية، بل أصبحت رحلة يومية للبحث عن الأمان والإنترنت ومساحة صغيرة تسمح لنا بمواصلة التفكير. عايشنا النزوح من مكان إلى آخر، وحملنا معنا ما استطعنا من الكتب والأوراق والهواتف، كأننا نحاول إنقاذ جزء من ذاكرتنا وهويتنا من بين الركام.

كنت أرى طلبتي في أماكن النزوح، يحملون التعب والخوف في وجوههم، لكنهم لم يفقدوا رغبتهم في التعلُّم. كنا نتقاسم المعاناة نفسها: الخيمة الضيقة، وانقطاع الكهرباء، وضعف الاتصال بالإنترنت، وصعوبة الحصول على الماء والغذاء، والقلق المستمر على الأهل والأصدقاء. لم تكن العلاقة بين الأستاذ والطالب في تلك الأيام علاقة أكاديمية تقليدية، بل أصبحت علاقة إنسانية قائمة على التضامن والدعم وتبادل الأمل.

كنا نلهث بحثاً عن نقطة إنترنت، نصعد إلى أماكن مرتفعة أو نقف طويلاً قرب مبنى ما، فقط لنرسل واجباً أو نحمل كتاباً أو نطمئن على زميل. كان الوصول إلى المعرفة يحتاج إلى شجاعة وصبر، وأصبحت المحاضرة القصيرة إنجازاً

كبيراً. أحياناً كنا نناقش فكرة علمية بينما تحيط بنا أصوات القصف، فنصمت لحظات، ثم نعود إلى الحديث وكأن استمرار النقاش شكل من أشكال مقاومة الخوف.

في الحرب، يكتشف الطالب الجامعي أن المعرفة ليست شهادة فقط، بل وسيلة لحماية الوعي والكرامة. فالطالب الذي يقرأ وسط النزوح يقول لنفسه وللعالم إن الحرب قد تدمِّر المباني، لكنها لا تستطيع بسهولة أن تدمر العقل. والثقافة في هذه الظروف لا تكون ترفاً، بل تصبح حاجة روحية تساعد الإنسان على فهم ما يحدث، والتعبير عن ألمه، والمحافظة على توازنه النفسي وهويته الوطنية.

أما الحياة الأكاديمية، فقد فقدت شكلها المعتاد، لكنها لم تفقد معناها. فتحولت الخيمة إلى قاعة درس، والهاتف إلى مكتبة، والرسالة القصيرة إلى مساحة للحوار. تعلَّمنا أن التعليم لا يسكن في الجدران، بل في الإرادة التي تجمع الأستاذ وطلبته حول سؤال أو فكرة أو حلم بمستقبل أفضل.

كانت ذاكرة المكان ترافقنا في كل انتقال. نتذكَّر الجامعة، والممرات، والمقاعد، والمكتبة، وأصوات الطلبة في الساحات. لم تكن تلك الأماكن مجرد مبانٍ، بل كانت جزءاً من تكويننا العلمي والإنساني. وحين غادرناها قسراً، حملناها في داخلنا، وأعدنا بناءها بالكلمات والذكريات.

لقد علمتنا الحرب أن الحفاظ على المعرفة فعل صمود، وأن الكتاب قد يكون وطناً مؤقتاً، وأن الأستاذ والطالب يستطيعان معاً حماية شعلة الثقافة من الانطفاء. ورغم الفقد والنزوح والخوف، بقينا نؤمن بأن العودة إلى الجامعة ستأتي يوماً، وأن ذاكرة المكان ستساعدنا على إعادة بناء الحياة والتعليم والإنسان.

التعليم في غزة بين الإبادة ومنظومة الاستنزاف وخلق الإعاقة

د. ياسمين سنونو، فلسطين (غزة)

كلية الطب، جامعة واين ستيت
ديترويت، الولايات المتحدة الأمريكية

لا تُقاس الإبادة الجماعية بعدد الأجساد التي غابت فحسب، بل بما تتركه من غياب وانشطار في الروح، ومقاعد وصفوف لم تعد موجودة، وكتب دفنتها الأنقاض قبل أن تُقرأ. فهي لا تستهدف الإنسان وحده، بل تطال المقومات التي تجعل الحياة ممكنة: الأسرة، والمستشفى، والمدرسة، والجامعة، والذاكرة، والقدرة على تخيُّل الغد. في غزة، لم يكن تدمير التعليم أثراً جانبياً، بل غدا جزءاً من استهداف أوسع يمارسه إرهاب الدولة اليهودية "الإسرائيلية" الصهيونية ضدَّ الجسد الفلسطيني وكينونته ومستقبله.

يمكن فهم ذلك في إطار ما أسمِّيه "منظومة الاستنزاف" وخلق الإعاقة (Scheme of Debilitation) كنهج منظم لا يكتفي بإصابة الجسد أو القضاء عليه، بل يسعى إلى إضعاف المجتمع واستنزاف قدرته على البقاء والتعافي. فالإعاقة هنا لا تُختزل في بتر الأطراف، بل تشمل الصدمات النفسية، وتدمير المنازل والمستشفيات والمدارس وشبكات الماء والغذاء ومراكز التأهيل، وفرض الحواجز التي تعيق الحركة والعلاج والوصول إلى الأجهزة المساعدة. إنها صناعة متعمدة للوهن: قتل سريع بالصواريخ، وقتل بطيء بالجوع والمرض واليأس.

يقف التعليم في قلب هذه المنظومة، ففي التجربة الفلسطينية ليس التعليم مجرد طريق إلى وظيفة أو شهادة، بل هو جزء من الكينونة الفلسطينية. حفظ الفلسطيني به لغته وذاكرته، وحمل قريته المهجَّرة في القصائد والخرائط، وبنى نافذة حين أُغلقت الأبواب. كان الكتاب بيتاً متنقلاً يصعب هدمه، وكانت المدرسة مساحة يعيد فيها الفلسطيني بناء ذاته في وجه مشروع يسعى إلى اقتلاعه من أرضه وروايته. لذلك، فإن استهداف التعليم هو استهداف للكينونة ذاتها، ومحاولة لقطع الصلة بين الفلسطيني وماضيه، وبين أطفالنا ومستقبلهم.

لقد دُمِّرت مدارس وجامعات، واستشهد طلبة ومعلمون وأكاديميون، وتحولت مدارس كثيرة إلى ملاجئ للنازحين. لم تعد السبورة تحمل درساً في اللغة أو الرياضيات، وصارت الجدران المتصدعة تستند إليها فرش العائلات، وصار جرس المدرسة عاجزاً عن أن يعلو فوق صوت الطائرات. أما المقاعد التي اتسعت لأحلام الأطفال، فقد غدت قطعاً متناثرة تحت الركام.

واليوم، بدلاً من أن يحمل الطفل حقيبته، يحمل وعاءً فارغاً بحثاً عن الماء. وبدلاً من أن ينتظر دوره للإجابة في الصف، ينتظر أمام حمَّام مشترك أو في طابور الطعام. وبدلاً من أن يحفظ جدول الضرب، يتعلَّم أصوات الطائرات، ويحسب المسافة بين خيمته وأقرب نقطة للمساعدات. هكذا تُستبدل مناهج الطفولة بمناهج النجاة، ويصبح البقاء الدرس اليومي الأقسى.

تتضاعف المأساة لدى الأطفال والأشخاص من ذوي الإعاقة. فمن فقد كرسيه المتحرِّك تحت الأنقاض لا يستطيع الوصول إلى مكان تعليمي مؤقت، ومن لديه إعاقة سمعية قد لا تصله التعليمات والإنذارات، ومن يحتاج إلى دعم فردي يجد نفسه في بيئة نزوح تفتقر إلى أبسط شروط المواءمة. هنا يتقاطع تدمير التعليم مع خلق الإعاقة: يُصاب الجسد، وتُهدم المدرسة، ثم تُقام الحواجز التي تمنع العلاج والتأهيل والتعلم.

ومع ذلك، تظهر مبادرات صغيرة كالمصابيح في ليل داكن كالرماد: معلمون يدرِّسون في الخيام، وفنانون يفتحون للأطفال نافذة للرسم، وشباب يتعلَّمون اللغات والحرف والموسيقى. لكنها لا تعوِّض مدرسة آمنة، ولا ترفع مسؤولية العالم عن حماية حق الفلسطينيين في التعليم. إن مستقبل غزة يرتبط إلى حدٍّ كبير بقدرة المجتمع على حماية حق أطفاله وشبابه في التعليم، باعتباره ركيزة للتعافي وإعادة البناء. ومن ثم، فإن أيَّ جهود إنسانية أو تنموية ينبغي أن تضع استعادة العملية التعليمية في مقدمة الأولويات، إلى جانب توفير الاحتياجات الأساسية

الأخرى. كما أن دراسة الآثار الممتدة للإبادة الجماعية على التعليم، بما في ذلك آثارها النفسية والاجتماعية والمؤسسية، تمثِّل خطوة ضرورية لفهم حجم التحديات ووضع سياسات أكثر فاعلية لدعم المجتمع المتضرر وإعادة بناء قدراته على المدى الطويل.

الطالب الجامعي في غزة، من قاعات المحاضرات إلى معركة البقاء

د. بسام حسن سعيد، فلسطين (غزة)

أكاديمي وكاتب فلسطيني

حين نتحدث عن طلبة جامعات غزة في ظل حرب الإبادة، فإننا لا نتحدث عن طلاب تعطلت دراستهم فحسب، بل عن جيل وجد نفسه يعيش واحدة من أكثر التجارب الإنسانية قسوة في التاريخ المعاصر. فالحرب لم توقف العملية التعليمية فقط، بل أعادت تشكيل حياة الطالب الجامعي بالكامل، وغيَّرت سلَّم أولوياته، وفرضت عليه أن يتعلَّم كيف يحمي حياته وأسرته قبل أن يفكر في المحاضرات والامتحانات ومشاريع التخرج.

قبل الحرب، كانت الجامعة بالنسبة للطالب الغزيّ مساحة للحياة بقدر ما كانت مكاناً للتعلم. هناك كان يلتقي أصدقاءه، ويختلف مع زملائه في النقاشات، ويشارك في الأنشطة الطلابية، ويجلس في المكتبة ساعات طويلة، ويحلم بوظيفة أو بمنحة دراسية أو بإكمال دراساته العليا. كانت الجامعة تمثِّل نافذة على العالم، ومساحة يشعر فيها الطالب أن المستقبل، على الرغم من الحصار، ما زال ممكناً. لذلك، فإن تدمير الجامعات لم يكن مجرد تدمير لمبانٍ وقاعات ومختبرات، بل كان محاولة لقطع العلاقة بين الإنسان ومستقبله، وبين المجتمع وأحد أهم مصادر إنتاج المعرفة.

مع امتداد الحرب، وجد آلاف الطلبة أنفسهم نازحين من مكان إلى آخر، يحملون ما استطاعوا حمله من حاجيات بسيطة، بينما بقيت كتبهم ودفاترهم وأجهزتهم تحت الأنقاض أو في منازل لم يعد الوصول إليها ممكناً. بعضهم فقد أسرته، وبعضهم فقد أصدقاءه أو أساتذته، وآخرون فقدوا الإحساس بالاستقرار الذي يحتاجه أيُّ طالب حتى يستطيع أن يركز أو أن يقرأ صفحة واحدة. لقد أصبح القلق والخوف والجوع جزءاً من الحياة اليومية، وهي ظروف تجعل الحديث عن الدراسة يبدو أحياناً وكأنه حديث عن زمن بعيد.

ومع ذلك، فإن أكثر ما يلفت الانتباه هو أن هوية الطالب الجامعي لم تختفِ. ففي الخيام ومراكز الإيواء، ما زال الطلبة يتحدثون عن تخصصاتهم، ويتساءلون عن جامعاتهم، ويتابعون أخبار زملائهم، ويحاولون الحصول على أيِّ فرصة للتعلم عن بُعد كلما توفرت الكهرباء أو شبكة الإنترنت. وبعضهم يحتفظ ببطاقته الجامعية أو بصورة التقطها في حرم الجامعة، ليس لأنها مجرد ذكرى، بل لأنها تمثل جزءاً من هويته الشخصية، ودليلاً على أنه كانت له حياة مليئة بالطموحات قبل أن تقتحمها الحرب.

ولو تحدثنا من منظور اجتماعي، يمكن القول إن هذه الحرب كشفت أن الطالب الجامعي ليس مجرد متلقٍ للمعرفة، بل هو أيضاً فرد داخل أسرة ومجتمع يتحمل أدواراً متعددة. فكثير من الطلبة أصبحوا مسؤولين عن توفير الماء والغذاء، وحتى التحطيب وصولاً إلى رعاية الأطفال وكبار السن، والوقوف ساعات طويلة في طوابير المساعدات. هذه المسؤوليات لم تكن جزءاً من حياتهم الجامعية، لكنها أصبحت اليوم واقعاً يستهلك وقتهم وجهدهم ويؤثر في قدرتهم على مواصلة تعليمهم. ومع ذلك، بقي الإيمان بقيمة التعليم حاضراً، لأن الغزيّ يدرك أن إعادة بناء المجتمع لن تتحقق بالإسمنت وحده، وإنما بالعقول التي ستقود عملية البناء وكذلك حاجة للخلاص الفردى والجماعى.

أما ذاكرة المكان الجامعي، فهي من أكثر ما يثير الحنين لدى الطلبة. فالجامعة ليست جدراناً وقاعات فقط، بل هي رائحة الكتب، وضجيج الساحات، والمقاعد التي اعتادوا الجلوس عليها، والمكتبة التي كانت ملاذاً قبل الامتحانات، والكافتيريا التي شهدت أحاديث لا تُنسى، والأساتذة الذين تركوا أثراً في وجدانهم قبل عقولهم. وعندما دُمِّرت هذه الأماكن، شعر كثير من الطلبة أن جزءاً من ذاكرتهم الشخصية قد انهار معها، وأن سنوات من العمر لم تعد موجودة إلا في الصور والذكريات.

إن طلبة جامعات غزة لا يحتاجون بعد الحرب إلى إعادة فتح الجامعات فحسب، بل إلى استعادة الإحساس بالأمان، وإلى دعم نفسي وأكاديمي يعوِّض ما فقدوه من سنوات وتجارب وفرص. فالحرب سرقت منهم وقتاً لا يمكن تعويضه، لكنها لم تستطع أن تنتزع منهم إيمانهم بأن العلم سيظل الطريق الأهم نحو الحياة. وربما يكون هذا هو المعنى الأعمق لتجربتهم: أن الجامعة قد تُهدم، وأن القاعات قد تتحول إلى ركام، لكن فكرة التعليم نفسها تبقى عصية على التدمير، لأن الإنسان الذي يتمسك بحلمه في أحلك الظروف يكون قد انتصر، ولو مؤقتاً، على الحرب.

العلم والعمل والألم والأمل: غزة والتعلم والتعليم

د. جهاد الشويخ، فلسطين (غزة)

أستاذ المناهج والتعليم، كلية التربية
جامعة بيرزيت، فلسطين

قال لي صديقي: "مسكينة بنتي، طول اليوم بتلف وبتدور مع كتابها: مرة بتهرب من الشمس في الخيمة، مرة بتدور على أقرب زاوية فيها التقاط أفضل للنت، وهيك."

كيف نفسر "حرقة" غزة وحرصها على التعليم؟ لا تفارقني صورة تسنيم وهي جالسة على حجر سقف بيت أباده الفاشيون الصهاينة، وتحاول أن تلتقط "نت" كي تقدِّم امتحان الثانوية العامة. ولا صورة سارة الصغيرة التي استشهدت على حجر يشبه مقعد الدراسة في صفها-الخيمة الذي يضمُّ الصفوف الأساسية الثلاثة الأولى. ولا مناشدة روان لما تبقى من وزارة التربية والتعليم في الضفة:

"أنا طالبة قسم علمي، وكنت أتمنى أن أدرس الهندسة، وكنت أرسم لمستقبلي وأخطط له الكثير والكثير... بات ذلك مستحيلاً. أنهكني الهمُّ والانتظار لقراراتكم. أناشدكم باسمي وباسم كل طلاب وطالبات غزة الحبيبة غزة المكلومة غزة الجريحة المذبوحة من الوريد للوريد، غزة التي تُباد وتموت أن تخففوا علينا هذا المنهج وهذه المواد وتجدوا لنا حلاً يخفف عن كاهلنا عبء الدراسة في ظل هذه الأوضاع المريرة ".

القلق يمتدُّ حتى الصف الأول: "إيش نعمل"، "بدنا قصص"، "بحس بنتي ما بتعرف إشي"، "شوف بنتي اللي عمرها 6 شو كتبت: 'غزة راحت، والسما زعلانة'". وطلبة الجامعات كذلك.

آلاء حالة فريدة من التعلُّم تحت الإبادة: كانت تحضر المحاضرة في مستشفى ناصر بسبب وجود إنترنت، مرات حضرت من غرفة العناية المركَّزة، مرات من قسم النساء، مرات من الاستقبال، مرات بالقرب من مكان الصلاة على الشهداء. متماسكة بشكل لافت للنظر. ولطيفة. تسير ما يقارب نصف ساعة من بيتها للمستشفى. نصف ساعة من رؤية الدمار ومن الشعور بالخطر وعدم الأمان، ومن الخوف من أيِّ قصف قد يحدث في أيِّ لحظة، ومن القلق على أهلها الذين تتركهم في البيت.

كتبت زميلة لي عن أحد طلبتها في غزة، وكيف يطمئن عليها بعدما علم عن دخول الفاشيين الصهاينة إلى الجامعة: "سلامات دكتورة، طمنيني عليكي". الشاب الذي يقطن خيمة تطايرت جنباتها قبل أسبوع وأخذت الريح في طريقها كل شيء، اللحف والوسائد، والأكواب، وحتى الأقلام، والألوان والأحلام يطمئن عليَّ أنا التي أسكن في بيت، وأجد باصاً ينقلني، وأذهب إلى الجامعة والمدرسة، ولديَّ قهوتي وغدائي. خجلت أن أقول له بأني كنت خائفة.

وأنا بدوري خجلت أن أسأل زميلتي: هل تعلَّم طلبة غزة وحدهم، منفصلين عن طلبة الضفة؟ في الحقيقة أحتار في كيفية الكتابة عن التعليم في ظل إبادة غزة، سواء في غزة أو في الضفة بما فيها القدس. وعلى الرغم من الحديث الإيجابي الذي أسمعه دائماً، حتى قبل الإبادة، بأن طلبة غزة مجتهدون ومثابرون، إلا أن هناك شعوراً تام بالعجز لا تحتاجه غزة ولا يفيدها. وخاصة من أصحاب علم النفس التقليديين، الذين ينطلقون، حسب وجهة نظري، من أن الناس مليئة بالمشاكل ويحتاجون إلى خبراء لإصلاحهم. ما أصبح واضحاً لديَّ هو أن غزة تستطيع تعليم العالم كيفية حب الحياة، والإيمان بالله، وحب الأطفال. من لا يريد فهم العبارة الأخيرة، فليذهب إلى الجحيم.

من المتوقَّع أن يقوم أناس أبيد نصف شعبهم في الداخل أن يتمردوا معرفياً، وهذا دور الجامعات والمؤسسات. آن الأوان أن نشعر أننا نستطيع أن ننتج معرفة، وليس السُّم الدائم بأننا تابعون للمعرفة الأورو-أمريكية، وأن بإمكاننا اختراع عجلة جديدة. إن شعباً فيه أهل غزة يجب أن يفخر وأن يشعر بعزة، وينتصر في التحدي الوجودي على الإبادة التي قتلت عشرات الآلاف ومحت معظم مظاهر الحياة، وأن نتعلَّم جميعاً من غزة وأهلها الشعور بالعزة والكرامة.

التعليم الجامعي في غزة خلال سنوات الإبادة

د. أسعد أبو جهل، فلسطين (غزة)

دائرة التربية والتعليم العالي، منظمة التحرير الفلسطينية

لم تعد تجربة الطالب الجامعي في غزة خلال سنوات الحرب والإبادة تشبه أيَّ تجربة تعليمية عرفها العالم من قبل. فالجامعة لم تعد مجرد قاعات ومحاضرات ومختبرات ومكتبات، والطالب لم يعد منشغلاً فقط بامتحان أو بحث أو متطلب أكاديمي، بل أصبح يبحث أولاً عن مكان آمن، وعن الكهرباء، وعن شبكة إنترنت، وعن هاتف يستطيع من خلاله التواصل، وعن بيت بقي قائماً يمكنه أن يدرس فيه. وفي كثير من الأحيان، لم يبقَ من الجامعة أو البيت سوى الذاكرة.

لقد طالت الحرب كل مقومات العملية التعليمية: دُمِّرت الجامعات، ومُحيت أماكن كانت تشكِّل جزءاً أساسياً من حياة الطلبة، وتم تشتيت الأسر، وتغيرت أماكن السكن مرات عديدة، وانقطعت الكهرباء والاتصالات والإنترنت لفترات طويلة، وأصبح الوصول إلى أبسط متطلبات التعليم الجامعي إنجازاً يحتاج إلى جهد وصبر ومخاطرة حين أصبح طلب العلم معركة يومية.

ومن خلال عملي في متابعة بعض طلبة غزة الراغبين في الحصول على منح دراسية خارج فلسطين، عايشت جانباً آخر من هذه المعاناة. كان الطالب الذي يرغب في التقدم لمنحة يحتاج إلى تجهيز وثائق وشهادات وكشوف علامات وجوازات سفر وملفات إلكترونية، وهي أمور تبدو بسيطة في الظروف الطبيعية، لكنها في غزة خلال الحرب تحولت إلى مهمة شاقة ومعقدة. فكيف يمكن لطالب أن يجهز ملفه إذا لم تتوفر الكهرباء لتشغيل الحاسوب؟ وكيف يستطيع إرسال وثيقة إذا لم يتوفر الإنترنت؟ وكيف يمكنه طباعة أوراقه أو مسحها ضوئياً بينما المكان الذي كان يقدم هذه الخدمات قد دُمِّر أو يُتعذَّر الوصول إليه؟

كنت أتلقى رسائل الطلبة واستفساراتهم، وأحاول مساعدتهم قدر الإمكان، لكن التواصل نفسه كان معركة. فلم يكن توفُّر الإنترنت أمراً مضموناً ولا توفُّر الكهرباء أمراً متاحاً. وكنت أتنقَّل من مكان إلى آخر بحثاً عن نقطة اتصال بالإنترنت، أو مكان يمكنني فيه شحن الهاتف والحاسوب. وأحياناً كان الوصول إلى هذه الأماكن يعني الاقتراب من مناطق خطرة أو السير لمسافات طويلة في ظروف أمنية قاسية. ومع ذلك، كان هاجسي أن أبقى على تواصل مع الطلبة، لأنني كنت أدرك أن ضياع فرصة التقديم على منحة ما قد يعني بالنسبة لبعضهم ضياع نافذة نادرة نحو مستقبل مختلف.

كان الطالب يتواصل معي من خيمة أو مدرسة تحولت الى مركز إيواء أو بيت مهدَّم جزئياً، وأحياناً من مكان نزوح مؤقت، ويسأل عن فرصة منحة أو موعد تقديم أو وثيقة ناقصة. خلف كل سؤال كان هناك إنسان يحاول أن

يتمسك بحقه في التعليم، على الرغم من أن كل الظروف المحيطة به كانت تدفعه إلى التخلي عنه.

هذه التجربة جعلتني أرى التعليم الجامعي في غزة بصورة مختلفة. لقد أصبح التعليم فعل مقاومة للحرب والنسيان، وأصبح الحفاظ على فرصة طالب في الدراسة نوعاً من الحفاظ على المستقبل نفسه. فالطالب الذي يبحث عن منحة وسط الركام لا يبحث فقط عن مقعد جامعي في بلد آخر، بل يبحث عن فرصة ليواصل حياته، ويحافظ على حلمه، فيثبت أن الحرب مهما طالت لم تستطع أن تنتزع منه حقه في أن يتعلم ويحلم ويصنع مستقبله.

وفي هذه السنوات لم تكن مهمتي بالنسبة لي مجرد متابعة طلبات أو فرز ملفات أو نقل أسماء، بل كانت مسؤولية إنسانية تجاه طلبة أعرف حجم ما يواجهونه. وقد جعلتني هذه التجربة أكثر إيماناً بأن دعم طلبة غزة تعليمياً ليس مساعدة عابرة، بل هو استثمار في الإنسان الفلسطيني، وفي قدرته على النهوض من بين الركام وبناء مستقبل أفضل.

التعليم الفلسطيني في غزة خلال حرب الإبادة

د. ولاء بطاط، فلسطين (غزة)

أستاذة الإعلام المشاركة، قسم تكنولوجيا الإعلام، كلية الآداب والعلوم التربوية
جامعة فلسطين التقنية خضوري، فلسطين

خلال الحرب "الإسرائيلية" على قطاع غزة منذ سنة 2023، تعرض التعليم لاستهداف واسع وممنهج طال الطلبة والتربويين والأكاديميين، والمدارس والجامعات، في مشهد يعكس استهدافاً لا يطال الحاضر الفلسطيني فحسب، بل يمسُّ مستقبل شعب كامل وحقه في المعرفة والتعليم.

لكن ما رأيته وعايشته مع زملائي الأكاديميين وطلبتنا في غزة كان شيئاً آخر. كان إصراراً استثنائياً على مواصلة التعليم، على الرغم من أن كل الظروف كانت تقول إن الاستمرار شبه مستحيل. عايشت مع الطلبة والأكاديميين أقسى الظروف التي يمكن أن يواجهها إنسان وهو يحاول أن يتعلَّم أو يعلِّم: انعدام مقومات الحياة، وفقدان المنازل، والنزوح، والخيام المكتظة، وانقطاع الكهرباء والإنترنت، وصعوبة الوصول إلى مكان آمن وهادئ يمكن فيه متابعة محاضرة أو إعداد بحث أو مناقشة رسالة علمية.

كان التزام الطلبة بالمحاضرات الإلكترونية في كثير من الأحيان أشبه بمعجزة يومية: طالب يحاول الدخول إلى محاضرته بينما يعيش في خيمة، وآخر يبحث عن شبكة إنترنت، وثالث يحاول متابعة دراسته وسط أصوات القصف والنزوح وفقدان أفراد من أسرته، وأستاذ يحاول الوصول إلى طلبته ومتابعة أبحاثهم على الرغم من الظروف التي يعيشها هو أيضاً. حتى التواصل بين الطلبة والمشرفين كان في كثير من الأحيان معقداً، وكانت تتحول أبسط متطلبات العملية التعليمية إلى تحدٍّ حقيقي. ومع ذلك كانت هناك محاولات جادة لمواصلة العملية التعليمية.

شاركتُ مع عدد من الزملاء الأكاديميين من غزة في الإشراف والمناقشة والتحكيم لعدد من رسائل الدراسات العليا، وكنت أتابع عن قرب إصرار الطلبة والأساتذة على حماية مسيرتهم التعليمية والعلمية على الرغم من كل ما كان ولا زال يحيط بهم وبالعملية التعليمية من مخاطر ومعيقات. وهنا أدركت أكثر من أيٍّ وقت مضى أن التعليم بالنسبة للفلسطيني ليس مجرد محاضرة أو كتاب أو شهادة... إنه تمسك بالمستقبل.

إن الطالب الذي يصرُّ على حضور محاضرته من خيمة، والأستاذ الذي يواصل التدريس والبحث على الرغم من فقدان بيته، والباحث الذي يتمسَّك برسالته العلمية وسط الحرب... إنما يعلنون جميعاً أن الإنسان الفلسطيني، على الرغم من كل ما يُفرض عليه، ما زال قادراً على التمسُّك بأسباب البقاء والنهوض. لقد حاولت الحرب أن تهدم المكان، لكن الطلبة والأساتذة تمسكوا ببناء الإنسان. وربما كانت هذه إحدى أكثر الصور التي بقيت عالقة في ذاكرتي من تجربة التعليم في غزة، حتى في أقسى لحظات الموت، صورة من ظل يبحث عن نافذة للعلم، لأنه يعرف أن من يفقد مستقبله يفقد القدرة على النهوض.

***

"ألوان من قلب غزة"

الفنانة ريم أبو الروس، فلسطين (غزة)

أؤمن أن اللون يمكن أن يكون مساحة نجاة، وأن اللوحة قد تتحول إلى وطنٍ صغير حين يضيق الأفق المسلوب. من هنا وُلدت مبادرة "ألوان من قلب غزة". على مدار خمسة أسابيع، رسمنا معاً. لم تكن مجرَّد دروس فن، كانت رحلة حبٍّ واكتشاف، تعلَّم خلالها الأطفال كيف يكون للرمز معنى، وكيف يصبح للون حياة.

تعرَّفنا على ألوان الأكريليك والألوان المائية والجواش، ومزجنا الظل بالنور، وتركنا للفرشاة ما تعجز الكلمات عنه. كان بحر غزة حاضراً في لوحاتهم، ساطعاً، واسعاً، مليئاً بالأمل. رسموا شبكة الصيد وسمك غزة، ورسموا الخيمة الباردة التي سرقت دفء قلوبهم، أرادوها فقط محطة انطلاق... ففي انتظارهم بيت يحملونه معهم أينما نزحوا، وتمنَّوا لو أن الوطن يُطوى في لوحة. رسموا زهرة الحنون، والكوفية، والعلم الفلسطيني، وسماء غزة التي لا تشبه أيَّ سماء، كانت بالِتة الألوان بين أيديهم كطائر يحنو فوق الخيام، يحاول أن يهرب من القضبان، ويُعلِّمنا كيف نرى الضوء حتى في أقسى اللحظات. هذه المبادرة ليست فقط عن الفن، بل عن قلوب صغيرة اختارت أن تحلم، وعن ألوان خرجت من قلب غزة لتقول للعالم: نحن هنا، لننتشل الحياة من رحم الإبادة، لنحيا رغماً عن الإبادة.

أربع ساعات من المشي؟

الكاتبة شروق دغمش، فلسطين (غزة)

لديَّ رغبة في أن أفعل شيئاً كنت أفعله دائماً قبل الحرب، كأن أسرق وردة متدلية من سور بيت ما، أو أرنَّ جرس بيت، أودُّ لو أشرب فنجان قهوة تحت دالية العنب، وأكمل مشيي البطيء وكأن الإصبع الذي ضغط على زر الجرس ليس لي، وأضحك في سرِّي على طفلة كنتها ذات يوم. فكانت حين ترنُّ أجراس بيوت الجيران، أو البيوت التي في طريق مدرستها... تركض حتى آخر الشارع ظانَّة أن ركضها سيُنجيها بينما هو ما كان يكشف أمرها.

مشيتُ في شوارع المدينة حتى تعبت قدماي، وابيضَّ حذائي، وتعثرت بالركام والخيبات عشرات المرات، واستعدت ذكرياتي في أربع ساعات. فقط أربع ساعات من المشي تذكَّرت فيها كيف كانت الشوارع، ومَن مشى فيها معي، وماذا دار بيننا من حديث. تذكَّرت كل الذين اختفوا من حياتي أو استشهدوا أو سافروا أو تفرَّقوا في بلاد الخيام والمواصي أو لا يزال مصيرهم مجهولاً.

بكيت كأن سيدي مات الآن، والآن الآن فقدت سهام ومصطفى ومجد ومعتز وسارة وبدرية ورغدة وأسماء وميادة وعمتي نورا. وابتسمت كأنني الآن ضحكت على نكتة قالتها صديقتي مريم في آخر مرة التقينا فيها، مريم التي لم تقل نكتة طوال حياتها أرادت أن تكون النكتة هي أول ما يذكِّرني بها. وارتجفت كأنني الآن سمعت أول صاروخ. وخفت مثلما خفت عندما قُصِف أول بيت قريب لي وكان أهله يخصونني. كان الشهداء العشرة هم عمي حسن وزوجته ومحمد ونور وتسنيم وسجى ومنى ونهى وضحى وسما.

كانت الشوارع تطول، والركام يمتدُّ أكثر. لم أتوقَّف إلا قبالة جامعة الأزهر—جامعتي التي درست فيها، ولي فيها ذكريات وأصدقاء كثر. وقفت بالضبط أمام جدار عليه رسمة للرئيس الراحل ياسر عرفات لم يظهر منها إلا جبينه وكوفيته السمراء بينما القذيفة تأكله من عينيه حتى آخر صدره. يا إلهي، أهذا مصير الفلسطيني حتى لو كان رسمة؟

تذكرت وسام الغرباوي، زميلي في الكلية، كان مجتهداً، وطيباً، ومثابراً. عمل مدرساً فور تخرجنا، وحصل على جائزة أفضل معلِّم. كنت أتوقَّع له مستقبلاً يحقِّق فيه مزيداً من الإنجازات. لم أكن أدري أنه كان يبذل كل طاقته ليحقق كل ما يريد في عمره القصير. استعدت أيام الجامعة: هنا كنا نأكل، وهنا كنا نمشي، وهنا كنا نبوح بأسرارنا... هنا تخاصمنا، وهنا تصالحنا... هنا كنا نأخذ محاضرات اللغة، وهنا الصرف وهنا النحو وهنا الأدب. وهنا، مكان هذه الخيمة المهترئة بالضبط، كان إبراهيم جالساً ورأيته لأول مرة في حياتي. قابلني أستاذي في النحو. في البداية استغربت أنه لا يزال حياً، وظننت أنني أستحضره في خيالي، وهذا ما يحدث معي عندما أقابل أيَّ إنسان أعرفه ولم أرَه طوال الحرب. لا أعرف لماذا في اللحظة الأولى يظن عقلي أنه مات... بعدما سلَّمت عليه وسألته عن

أخباره، وحمد الله أنه فقد بيته وماله في الحرب ولم يمت له ابن أو بنت. سألته هل تتذكَّرني أم أنك عرفتني من وجهي فقط؟ فقال لي أنت لا تُنْسَي يا شروق... وسعيد بأنك نجوتِ من الحرب. إذن كلنا نتوقَّع أن الآخر لا بدَّ أنه مات، لست وحدي. مشيت ومشيت ومشيت ومشيت، ولم أجد وردة، أو سور بيت، أو بيتاً كاملاً، أو جرساً، أو مكاناً دافئاً أودُّ لو أشرب فيه، تحت دالية العنب، فنجان قهوة